3

فكرية شحرة

صاحب الابتسامة

رواية

صاحب الابتسامة

رواية

الجزء الثالث

فكرية شحرة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر 2019م - 1441 هـ

ردمك 978-614-01-2946-7

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

facebook.com/ASPArabic

twitter.com/ASPArabic

www.aspbooks.com

asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

هيا نكتب..

ولا يهم من يقرأ؛

هيا ننجب كلمات بعيون واسعةٍ شغوفة؛

لا يغمضها حتى الموت..

سأكتب كل تلك الدموع التي لم يقرأها أحد.

إلى ذاتي..

إلى "فكر" كما يناديني أخوتي وأحبتي..

أتمنى أن يأتي بعد موتي من يقدرني.

أنــا مــن أولئــك الــذين يعشــقون تــراب الــوطن الــذي يــدفنهم بالنسيان..

فكرية شحرة

(1)

وحيداً واقفا في حجرة مكتبه في صنعاء يتأمل أثـــاث المكتـــب الحميم مبتسماً في سعادة؛ تلك الابتسامة التي تشـــرق لهـــا ملامـــح وجهه.

كان ينتظر قدومها.. عفراء حبيبة القلب وصديقة الروح.

تقدم بخطوات متأنية يتحسس أثاث المكتب بشوق، كصـــديق قديم ما زال يحمل رائحة أصدقاء رحلوا وتركوا بصماتهم على الأثاث وقلبه.

الطرقات الخفيفة وانفراج الباب جعلاه يلتفت نحو القادمة بفرح عاصف.

كانت ترتدي غطاء شعرها الأزرق الذي تحبه؛ فيمـــا عودهـــا المكتمل امتلاء يقترب في خطوات مرتبكة..

أخيرا ها نحن نلتقي حيث لن نفترق..

قطع الخطوات القليلة بينهما بلهفة وهو يقول:

- قلت لك سنلتقي يا عفراء، لم يكن ما بيننـــا خيطـــا مـــن الدخان؛ بل انصهار عاطفي جمعنا شخصا واحدا.

انطفأت ابتسامتها عندما اهتز المكان بأكمله لصـــوت انفجـــار قريب.

ضمها وحيد إلى صدره بقوة وهو يقول بقلق:

- لا تخافي إنهم يقصفون صنعاء كالعادة؛ ربما اكتشفوا مخـــزن أسلحة بين المنازل وهم لا يرون منازلنا حوله.

صرخت بفزع وانفجار آخر يطيح بزجاج حجرات المبنى:

- إنهم يعاودون القصف يا وحيد.

ضمها إليه أكثر وهو يهمس بقلق أشد:

- تعالي نخرج من هنا.. لا تخافي أرجوك.

تعالت صرخات الناس مع دوي الانفجارات ووحيد يهـــرول متشبثاً بعفراء عبر درجات المبنى؛ لا يدري من أين أتى كل هـــؤلاء الناس الذين يتدافعون أمامه وخلفه ويصرخون برعب زاد من قلقـــه وخوفه.

يتعثرون ويسقطون فتدوسهم الخطوات الهاربة برعـــب؛ يحـــيط كتف عفراء بذراعه ويشدها إليه بقوة تعيق تحركهما معا؛ يخشـــى أن يفقدها مجددا.

بكاء وعويل يتصاعد وأجساد تتدافع؛ غبار يتصاعد من رؤوس الناس وكأنهم يحترقون.

دوى انفجار متوحش.. انتزع كتف عفراء من تحت ذراعه التي تمسكها؛ شعر أن جزءاً من جسده يسقط؛ غامت عيناه ودوي يفتك برأسه قبل أن يسقط ما تبقى من جسده في دوامـــة ســـوداء تمتلـــئ بالصراخ والأنين.

يقاوم انطباق جفنيه بقوة وهو يئن بصوت لا يغـــادر حلقـــه؛ يسمع صوت عفراء تناديه من بعيد وهي تبكـــي بصـــوت واهـــن كالغريقة.. لعلها جريحة تحت الأنقاض.

ينهض ويشعر أنه ما زال ممددا؛ أيدٍ نحيلة كثيرة تتمسك برجليه وأصوات تصرخ به:

- أبـــي.. سأذهب للقتال أنا...

زحف بين الرمال؛ رمال تمتد حتى الأفق؛ لا مباني ولا بشـــر؛ رمال وبكاء خافت يأتي من مكان لا يراه.

أجساد غارقة في الدماء تظهر كلما تقدم في زحفه بحثـــا عـــن عفراء؛ يشعر أنه يعرفهم جميعا؛ كم يشبه هذا عمار صديقه الحبيب؛ مسكينة سماح كم ستحزن؟!!

كان يتعثر بهم فيحتضنهم معتذرا وهو يبكـــي دون صـــوت أو دموع.

يرى عفراء هناك بعيدا تضم ركبتيها إلى صدرها منكمشـــة كطفلة من شدة الخوف وغطاء رأسها الأزرق يحجـــب وجههـــا تماما.

يزحف بسرعة أشد وصوت طفولي يأتي من خلفه مرددا بنشيج موجع: أبـــي أين أنت؟

وصلت يداه إلى جسد عفراء الهامد وصرخ بلوعة مدوية وهـــو يرى جسدها غارقاً في بركة ماء؛ كان يعوي دون صوت؛ يبكي دون دموع؛ يئن بكل الوجع.

انتشل جسدها البارد المبتل؛ كان متصلبا قد فارقتـــه الـــروح؛ ضمها إلى صدره للمرة الأخيرة وقد جثا على ركبتيه في رمال صحراء مترامية؛ لم يعد يسمع شيئا سوى صدى صرخاته ترددها الصـــحراء؛ مد يده إلى غطاء رأسها الأزرق ليزيحه في نظرة أخيرة ليظهر له وجه شائف صديقه الأثير.

كم تمنى أن يرى وجه شائف وهو يدفنه بيديه بعد استشهاده في جبهة صرواح.

قالوا له أن القذيفة شوهت وجهه كثيرا فلم يرَه.

لكنه الآن يبدو كالنائم وابتسامته تملأ وجهه؛ حتى لحيته المهذبة دوما تبدو في أجمل حالاتها.

قبل جبينه مرات كثيرة وقد نسي عفراء وبحثه عنها أمام رؤيـــة صديقه المخلص..

ترك جسد صديقه ونهض يجرى دون توقف؛ لم يعد يدري عما يبحث؟!!

عفراء؟ أم شائف؟ أم أحمد النويرة وطفليه؟

سميرة وأولاده أين هم؟

عمّ يبحث في هذه الصحراء المترامية؟ هل يبحث عن وطن؟

كان يجري وهو يحمل بيد واحدة علم الجمهورية كجنـــدي في معركة.

يجري شاعرا بألم شديد في ذراعه التي كانت تضم عفراء وهمـــا يهربان من القصف.

حاول أن يمسك بذراعه التي تؤلمه؛ مد يده الأخرى التي تمســـك العلم دون أن يتوقف عن الجري وكانت صدمته مروعة حين لم يجد ذراعه وتوقف برعب وهو يطالع نصف جسده المبتور!!

كيف استطاع أن يسير كل هذه المسافة بنصف جسد؛ بنصف روح؟

وإلى أين سيذهب في صحراء الوطن هذه؟!!

كان يصرخ دون صوت ويجري دون توقف..

***

- وحيد استيقظ.. استيقظ أنت تحلم.

فتح عينيه الغارقتين في الدموع؛ وتأمل حجرة مكتبه في البيت؛ في مأرب ليس سواها؛ ينام هنا أغلب لياليه حين يصيبه الأرق فيغادر حجرة نومه تاركا سميرة تغط في النوم بهدوء دون أن يزعجها بتقلبه في الفراش.

لم تكن تدخل حجرة مكتبه حتى لتنظيفها نزولا عند رغبته؛ ينظف مكتبه ويحافظ على فوضاه كما يحب.

لكنها الآن دخلت لتيقظه للصلاة وتنقذه من كابوس مريع رأى فيه حياته تُقتل مرات في قصف وموت وأنهار من الدم؛ رأى رفاقه مجندلين ورأى عفراء تغرق في الموت.

هل كان يصرخ باسمها يا تُرى؟!!

مسح وجهه بكفيه وهو يقول لزوجته محاولا أن يطمئن لما كان يردده في الحلم:

- صباح الخير؛ لم أسمع أذان الفجر؛ هل كان صوتي مرتفعا حتى بلغك؟

ردت وهي تواصل رفع الكتب عن الأرض على ضوء الصباح الذي يشق طريقه عبر النافذة الخالية من الستائر:

- لا تقلق لقد كنت تغمغم فقط بكلمات غير مفهومة؛ لكني أتيت كي أطمئن عليك بعد أن غادرت الحجرة مؤرقا في نومك.

ابتسم برضا متجاهلا تلميحها وهو يقول:

- ما أجملك يا سميرتي.. أنقذتني من كابوس كاد يقتلني.

ضحكت وهي تنفض يديها من غبار علق بهما قائلة له:

- أنت كثير الأحلام منذ عرفتك؛ رؤاك هذه تلاحقك كحياة أخرى في نومك؛ لا أظنك ستموت إلا بسبب حلم كما تقول.

ابتسم بحزن وهو يردد لنفسه مراقبا خروجها من مكتبه:

- ربما يا سميرة يقتلني ذات حلما حقاً.. ألم يعد الوطن حلما؟ والحب حلم؟ وحتى الحياة كما ينبغي صارت حلما.

(2)

كنت قد قررت كتابة مذكراتي كعجوز طاعن في اليأس..

قصة رجل يحاول أن يعيش الماضي رغم سوء ما كان فيه، فقط كي ينسى مرارة الحاضر بكل ما فيه من سوء لا يحتمل..

ولماذا قصتي؟

هذا السؤال راودني في أول صفحة أيضا..

ربما لأنني حين أترك خلفي كومة ورق لفظت فيها الروح ستظل حية من بعدي تقول لكم كل ما حدث!!

قبل خمس سنوات كنت شاب الروح ممتلئا بالحياة؛ مفعما بالأمل؛ مكتظا بزحام الطموح والأمنيات.

قبل خمس سنوات أيضا لم يقتل كل هؤلاء البشر لم يكن هناك مجازر ومعتقلات وصواريخ والغام ودمار؛ آه.. ماذا فعلت فينا الحرب؟!!

لم نكن نتخيل كل هذا الخراب..

هذا الضياع الذي نزع الآلاف إلى النزوح والتشرد ونزع آلافا آخرين إلى القبور.

الحياة في وطن يعاني سكرات الحرب هو منزلة بيت التشرد والموت؛ هذا ما نعايشه نحن الذين تشبّثنا بتراب الوطن و لم نهجره إلى الغربة.

الشهور تمر ثقيلة وما يستجد من أحداث هو إعادة موجعة لأحداث سابقة..

لا جديد تحت سماء اليمن إلا أننا تعودنا على ألا شيء جديد يحدث.

لا جديد فأنا ما زلت في مأرب أفكر بالرحيل ولا أرحل؛ أود البقاء فأغرق أكثر؛ أتنقل بين أجزاء الوطن كأني أجوب العالم.

ما زلت أحبكِ أيضا يا عفراء وما زلت أدفن رفاقي كل يوم وأكبر ويكبر حزني.

الجديد في فوضى الشعور لديّ أنني كنت مهما تكاثر التعب على كاهلي ومهما بلغ إرهاقي وانشغالي مداه إلا أني حين يأتي موعد النوم أنام كالقتيل..

الآن.. لا أنام مهما أردت ذلك. لم يعد يغلبني النوم؛ صار تفكيري يغلب كل شيء.

ويغلبني أنا أيضا ويحطم كل دفاعاتي مع غزوه لكل خلية في دماغي وكل جزء في روحي.

عفراء.. لعل الشيء المتبقي لي منك هو أن أكتب من أجلك..

أكتب قصتي؛ أنا الرجل الذي يرى أن قصته تستحق أن تُروى لأنها قصة وطن وقصة حب أيضا.

ذكريات رجل أرّخ لوجوده بحدثين كانا بداية لكل شيء رغم أن أحدهما قبيح أكثر مما ينبغي وهو اجتياح الحوثية للوطن ونشـــوب الحرب.

والثاني جميل أكثر مما يصدق.. لقائي بك ذلك الصباح البعيـــد حين أتيت إلى مكتبـــي في صنعاء من أجل توزيع روايتـــك؛ أنـــت المشمسة كعدن؛ الساحرة كشاطئ لا وصول إليه.

المفارقة أنهم اجتاحوا صنعاء لترحلي أنت..

وكم رحل من جمال وهناء من هذا الوطن بقـــدومهم؛ رحـــل الأمان والكرامة والحرية.

إنها قصة فقد الوطن مرتين فأنت يا عفراء وطن الـــروح الـــتي فقدتها قدرا.

***

الحيـاة معتـرك صـراع رهيـب أقـل خسـائرك فيهـا أن تفقـد حياتك؛ وأعظم خسائرك فيها أن تفقد مبادئك وأفكـارك التي تؤمن بها.

(3)

في حياتنا نعاني وقع أحداث ومواقف خانقة لكن أقساها تلك التي تضطر فيها إلى مناقضة نفسك بدافع غامض قد يكون الخوف الذي لا تعترف به لنفسك هذه؛ الخوف أن تكون قضية عمرك مجرد هراء..

وحيد كان يخشى من مراد أبنه الثاني الذي عشق لعبة الحرب والسلاح وترديد "زوامل الحرب"

والذي انطفأ ولعه هذا بمقتل رفيقه الأعز "شاهر" في صفوف الحوثي..

اعتزل مراد الاهتمام بالحرب بطرفيها وانكمش على نفسه بصدمة الفاجعة كيف يقتل الصديق صديقه فقط لأن الحرب فرضت هذا الخيار..

لكن "ماهر" ابن التاسعة عشرة الرصين والهادئ منذ صغره كان فاجعة وحيد المخبأة في كتاب القدر.

فاجأه ذات يوم بقوله برصانته المعهودة كأمه:

- أريد الاستئذان في اللحاق بجبهة صرواح.

لوهلة ظل وحيد يحدق إلى ولده عاجزاً عن فهم هذه الرغبة لشاب ما زال شاربه يصارع الظهور.

قال له بهدوء:

- هذه الفكرة انزعها من رأسك تماما.
- هذه رغبة وليست فكرة يا أبـــي؛ سأذهب للقتال وهذا ما ينبغي علينا فعله؛ لم يعد هناك بيت إلا وفيه مـــن يقاتـــل؛ سأذهب أنا كي أقاتل يا أبـــي.
- أسمع يا ماهر هذه الحرب أكلت رفاقي كما أكلت الكـــثير من الشباب؛ لن أترك أبني وقودا لها، أتفهم ذلك؟

ارتسمت ابتسامة طفيفة على وجه ماهر" رغم مكابدته إخفـــاء سخريتها:

- هل تعني أنك تناقض كل ما تكتـــب عنـــه في مقالاتـــك وكتاباتك عن التضحية من أجل الوطن واستعادة الجمهورية من فم الإمامة؟ هل تعني أن كل هذا الكـــلام في قنـــوات التلفاز ومواقع الأخبار مجرد شعارات كي تقود أبناء غـــيرك للقتال فقط.

ضم وحيد شفتيه بقوة وهو يصر من بين أسنانه:

- الوضع اختلف يا ولدي.. نعم حلم الدولـــة واســـتعادة الجمهورية هدفي وما أدعو إليه؛ لكن هذه هـــي الســـنة الخامسة لهذه الحرب العبثية وهذا يعني أنها ستطول مـــا دام ضحاياها أبناء البسطاء؛ ما دام خلفها من يتاجر بهم؛ مـــا دام هناك فئة تنتفع وتعتاش من الحرب؛ ستطول ويفني كل من نحب.

أنا أب ومن حقي أن أخاف على حياة ولدي وأتمنى له الشهادة الجامعية والعيش الكريم وليس الشهادة والموت وما زال غض الغصن.

يجب أن تعلم أن ما أدعو إليه هو الحياة الكريمة الحرة وليس الموت في الجبال كي تأكلك الكلاب وأعجز حتى عن دفنك.

صارت الحرب لعبة وشبابنا بيادق فقط فكيف أسلمك للموت وأنت أغلى من نفسي؟

تذكر وحيد قصة روتها له زوجته سميرة عن عاقل الحارة الذي باع نفسه لشيطان السيد وملكوت الولاية؛ وارسل ولده مرغما للدفاع عن أطماع السيد وكان الولد كلما عاد فارا من الجبهة اعاده والده مكبلا للجهاد..

أي قلب لذلك الأب..

حتى عندما عاد ولده جريحا لم تشفع له جراحه بل أعاده لجبهة القتال مسحوبا وملطخا بدمائه؛ لكنه في آخر نوايا الهرب تلقفه لغم أرضي من صنع رفاقه كان رحيما به كأبيه.

اشتد انفعال وحيد وخشي أن صدامه مع ولده يزيده اصرارا.

فكر أن يؤثر على عاطفة "ماهر" بدلاً من إرغامه لعل ولده كبر كثيرا في هذه السنوات الأربع وصار له إرادة مستقلة.

زفر وحيد برجاء:

- لا تفجع قلب أمك يا ماهر؛ هي تراكم الحياة كلها فلا تحرمها حياتها برحيك للقتال.

أعرف أن قرارك هذا قرار رجل شجاع أقدره كثيرا لكن الشجاعة الحقيقية أن تتخلى عما تريد من أجل من يريدك يا ماهر.

ثم أني سأسافر قريبا إلى تعز لرؤية ولدَي صديقي أحمد النويرة وتعرف كم أن السفر في وطننا مكللا بالمخاطر؛ لمن أترك أمك وأخوتك إن لم تكن أنت لهم أبا في غيابي ومن بعدي؟

رد ماهر بعناد:

- حسنا يا أبـــي سنؤجل الحديث حول قراري حتى تعـــود بسلامة الله من سفرك؛ أنت أبـــي الذي أؤمن به وأؤمن بما يقول ويفعل.

تنهد وحيد في يأس، لماذا أصبح الأبناء يحملون هذه اللغة العدائية في أحاديثهم مع آبائهم؟!!

رغم أنه لا يتذكر أباه كثيرا لكنه كان لأمه خاضعا ذليلا رأفـــة بها؛ أصبح هذا الجيل أكثر تعقيدا وقدرة على المجادلة:

- نعم نؤجله يا ماهر على أن تفكر مليّا في حديثي وأفكـــر في قرارك.

* * *

(4)

أنا في تعز.. أتيت كي أزور رعد ورهف ولدَي صديقي أحمد النويرة.

لن تتخيلي ما معنى أن تسافر من مأرب إلى تعز؛ فاجعة السفر عبر المدن التي تسمى محررة؛ لقد استغرق السفر مني ثلاثة أيام كاملة.

لا.. لم أكن أسافر على ظهر جمل أو ناقة؛ لقد سافرت على متن حافلة كبيرة للنقل الجماعي بتذكرة خيالية.

لكنني قضيت ليلة في عراء الصحراء على أبواب مدينة عدن العاصمة المؤقتة؛ بعد رفضهم دخول الشماليين كالعادة.

سافرت عبر عدن لأنها – كما أظن – الطريق الآمن لصحفي مطارد عوضا عن طريق البيضاء –ذمار حيث تصبح نقاط التفتيش مصائد لالتقاط الناس.

أنا في تعز كي أرتب لدراسة ابني صديقي الراحل؛ لكن وجودي أتى مصادفة كي أشهد ثورة الجياع التي انطلقت في شوارع المدينة احتجاجا على وضعنا الاقتصادي الذي انهار فعلا وبدت ملامح المجاعة تتشكل في كل اليمن.

حتى عبارة وضعنا الاقتصادي تبدو لي منهارة حيث لا اقتصاد في بلد يعاني احتلالا مزدوجاً.

المظاهرات الاحتجاجية في تعز على أشدها..

هذه الروح الثورية الوثابة تلائم طبيعة المدينة المالحة؛ كل شيء في تعز له إيقاع سريع مختلف؛ لهجاتها وزي سكانها الغالب؛ وتفخيم الأنا المفرط لفظا وإعلاما.

إنها ثورة الجياع يا عفراء..

الجوع.. من كنا ندلل أصحابه بلفظ الفقراء والمحتاجين ونضع حول اللفظ قوسين كحماية مما يلحق بنا من خزي وحرج، الجوع من يزحف كالظلام ولكن بصمت دون ضجيج احتجاج.

يعري البطون الخاوية كما يعري الضمائر المرتخية.

يتسلل تدريجياً حتى يقيم مملكة المجاعة على أنقاض الكرامة والحرية، الجوع أيسر الطرق للاستعباد والخذلان.

الشيء المثير للدهشة هي تلك السكرة من الذهول التي تغشى وجوه الناس لوصولنا إلى هذه الحالة السريرية؛ كأن الحرب هي الموت الذي جعل حمى الجوع مقبولة ومسكوتاً عنها.

نظرات الناس تلهث بصوت مسموع تصدم الجماد والأحياء ولا تصل لأموات السياسة؛ ذوي الكروش المستديرة والطاولات المستديرة وحلقة مشاكلنا المستديرة بلا نقطة نهاية.

الساسة الذين لا يعرفون الحاجة أو العجز أمام متطلبات الحياة الذي تواجهه أسر أفقدها غياب فتات الأجور وهبوط العملة المحلية حسها الثوري وغيرتها المكبوتة.

فتطلعت بعيون الرجاء إلى حل سلمي لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في حين يماطل هؤلاء الساسة في منح أبسط حق لهذا الشعب الذي

تنازعته سلطتان ودولتان وحكومتان، كل منهما تبحث لها عن موطئ قدم على ظهر هذا الشعب المثقل.

ذل الحاجة يغزو كل بيت ويهتك ستر الكفاف الذي يعيشه غالبية الشعب بصبر واحتساب، تقديراً من المواطن لأزمة الوطن.

يتساءل الناس عما يجول في أذهان هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم حكاما واستولوا على دولة بكل مواردها و لم يكتفوا بل سعوا لما في جيوب البسطاء من ريالات قليلة!

ماذا تقول لهم عقولهم المتعفنة عن معاناة هذا الشعب الذي هم مسؤولون عنه كحكام، وإلى متى تجتمع الحرب والجوع كمحراثٍ من معاناة على ظهر اليمنيين.

الآن ومع انقطاع الأجور لما يقرب من أربع سنوات انكفأت عائلات على بؤسها لا تشكو فاقتها إلا إلى الله، قد سدت السبل في وجهها وباتت تتسول معونات المنظمات.

والدول الراعية لمأساة هذا الشعب تتفرج ما دامت البطون ممتلئة والضمائر ملوثة الإحساس.

لكن صبر الشعب لن يطول فأعظم الثورات وأصدقها ما كانت ثورة جياع تكتسح الظلم والفساد واللصوص.

وها هي تعز سباقة كعادتها لتخرج منددة بسياسة التحالف وفساد الشرعية وإجرام الحوثية.

في صنعاء أيضا وإب حاول طلبة الجامعة الخروج منددين ضد الجوع؛ لكن مليشيا الحوثيين واجهت احتجاجهم البسيط بوحشية لا تصدق؛ انهالت الهراوات على أجساد الفتيات؛ واعتقلن على ظهور الأطقم العسكرية في فاجعة لم يشهدها مجتمعنا المحافظ.

حقا أن دولة الشرعية خيال مآتة لم يفزع الجوع بل ضم الفساد على أوسع نطاق؛ إنما يكفينا من خيال الدولة هذا في تعز أن مظاهرات الجياع لم تقابل بتلك الوحشية المروعة كما في صنعاء وإب.

عزيزتي عفراء.. خمسة أشهر منذ رسالتك النارية عن وجوب الفراق؛ لم يحدث الجديد فيّ أو في وطني؛ بل المزيد من الضياع؛ المزيد من التشظي والخراب والحزن.. والعجز رفيقي الدائم..

انقطعت أخبارك عني لكني أتخيلك دائما وأحدثك بكل شيء كما كنت تفعلين أنت لي؛ أكتب إليك يوميات حربنا التي لا تنتهي.

أتخيلك هناك في القاهرة تزورين صديقاتك وتبتسمين عند تذكرك حبك الضائع لرجل عجز أن يتخذ قرار اللقاء.

ربما البعد قد أنساك هذا الحب ولعل هذا أفضل من حياة كنا سنتقاسمها تحت ظل الخوف والجوع والحرب.

***

نزلت في ضيافة صديقي ماجد، شاب نشط يتنقل من مكان إلى آخر ضمن عمله في منظمة إنسانية؛ يرتدي كوفية تغطي صلعته المبكرة صارت مع النظارة جزءاً من وجهه الذي لوحته الشمس في تنقلاته الدائمة بين القرى.

فارع الطول كفاية لتصبح الخطوة بمثابة خطوتين كأنما خلق ليكون عداء وهكذا أصبح في عمله الشاق.

تجاوز الثلاثين وما زال يحتفظ بحريته كعازب وكلما نعته رفاقه بالعجز عن تحمل مسؤولية أسرة يضحك قائلا: كيف وأنا أهتم

بشئون عشرات الأسر التي علي رعايتها.

في طريقنا إلى "الباب الكبير" أحد الأماكن الحميمية والتاريخية في تعز؛ مررنا بسوق "اللقمة" الذي اشتهر ببيع أنواع الخبز البلدي ومن هنا جاءت تسميته رغم احتوائه على الكثير من المشتريات كالفاكهة والخضار والقات أيضا.

في أعلى السوق استقر بنا الجلوس في قهوة "الشُعبـــي" قريبا من جامع المظفر..

كعادة أغلب المقاهي الشعبية كانت المقاعد خشبية كبيرة وبراد الشاي الكبير في مدخل القهوة.

سألته ونحن نجلس لاحتساء الشاي الأحمر:

- كيف ترى عمل الإغاثة؟ هل يساعد النـــاس بالشـــكل المرجو؟

مط شفتيه وهو يضع كوب الشاي من يده قائلا:

- للأسف ليس كما ينبغي؛ إنها لا تصل إلى كل من يحتاجها؛ ربما لا تصل لمن يحتاجها فعلا؛ يوجد لدينا منـــاطق نائيـــة ولصوص الإغاثة كثيرون.

سأقص عليك قصة تعرف منها ما أعني؛ في إحدى القرى أتـــى إليّ رجل متوسط العمر قال لي أنه يعرف نساء من قرابة بعيدة يعشن وحيدات في جبل لا يجدن ما يأكلن ولا تصل إليهن أي معونة وأنـــه يذهب لتفقدهن بدافع الشفقة؛ لكن الجوع والفقر أوصلهن إلى حالة صحية سيئة.

ذهبت معه إلى منطقته وفي أسفل الجبل أشار إليّ الرجل المتهالك من التعب قائلاً وهو يلهث:

- هناك أعلى الجبل ستجدها مع بناتها؛ وأعذرني لم أعد قادرا على مرافقتك لمشقة الصعود؛ أنا أزورهن مرة كل أسبوع وأتعب بسبب ذلك تعبا شديدا وأعجز عن حمل ما يكفيهن؛ وبسط كفيه بيأس: لا تصل السيارات إلى هناك وليس لديّ حمار.

قلت له بامتنان صادق:

- لا عليك؛ أستطيع أن أكمل الطريق وحدي.. شكرا لك.

صعدت المنحدرات المعشبة وثباً؛ كانت المسافة طويلة فعلا؛ لا أتفهم سر هذا العشق اليمني للسكن في أماكن صعبة الوصول؛ اختيار الإنسان اليمني بناء قراه على حافة الأفق قريبا من السماء؛ بعيدا عن وديانه التي يرعاها ويشق عليه أحيانا الهبوط إليها والصعود منها.

لم يكن هناك قرية كما توقعت بل ركام مساكن قديمة متهالكة ومهجورة تعد على الأصابع.

وأنا أمضي نحو البيت الذي بدا حياً بينها ظهرت أزواج العيون، الواحد تلو الآخر، لفتيات نحيلات بأسمال مهترئة لكنها لم تنس رغم فاقتها الواضحة أن تغطي وجوهها فلا تظهر سوى عيون مستطلعة؛ ربما البرد في هذا المكان هو السبب الأول لوجود اللثام على وجوه الفتيات الصغيرات فلا ناس ولا غرباء هنا باستثنائي.

سألتهن بابتسامة متوددة ما أن اقتربت:

- أين الجدة يا صغيرات؟

فتدافعن إلى داخل البيت كل واحدة تنقل الخبر إلى جدتها.

كان الجوع يبرز في محاجر أعينهن الغارقة داخل الجماجم الصغيرة؛ اعتصر الوجع قلبي بقوة؛ لكن ما أن برزت الجدة

العتيدة حتى أسود الأفق أمامي..

كانت عجوزاً لا يكسو العظم منها سوى جلد تشقق لشدة الأعمال التي تنوء تحت ثقلها؛ اقتربت مني بفرحة شديدة، كان الرجل قد حدثها أني سآتي إليهم بما يسد جوعهم.

من حديثها الطويل عرفت أنها رجل البيت المتهالك هذا بعد موت زوجها من سنوات طويلة؛ ورحيل ولدها الأكبر للتجنيد مع الشرعية واستشهاده في صرواح بعد أن ترك زوجته مع خمس فتيات وولد مريض؛ ليرحل بعده ولدها الثاني مع الحوثيين ليختفي منذ سنتين، لا تعرف هل هو حي أم ميت، وترك لها زوجته وابنتيه.

تتحدث كيف كانت هذه البيوت عامرة بالناس لكنهم نزحوا من الفاقة والجوع وعجزت هي أن تذهب إلى أي مكان؛ وحيدة مع عائلتها الكبيرة من النساء فقط.

وأنا أغادرهم تلاحقني أزواج العيون الجائعة تعثرت خطواتي وأنا أتخيل كم من الأسر المنقطعة في أماكن معزولة كهذا المكان؛ هناك ينهشها الجوع ولا تصل إليها إغاثات المنظمات الغذائية.

كم هي عشش الفقراء على سواحل تهامة وصحراؤها لا يصل خبرها إلى رعاة الإنسانية المجزئة.

كم من أفواه أطبقها الجوع والحياء والعجز وبُعد الشقة وطول المشقة؟!!

مهما بذلت هذه المنظمات من نوايا حسنة تظل تسكب خيرها في حِجر المليشيا وأعوانها ويستفيد منها نزر بسيط من المقصودين بالإعانات..

هذه حقيقة الحروب يا صديقي، ولهذا تنتشر المجاعة ويموت الناس؛ ويُقتل من لا يستحق ويشبع من لا يجوع ويكرم الهين وينتصر الشر.. هذه هي حقيقة الحرب.

لوحت للفتيات مودعا وواعدا بالعودة بما يحتجن والألم يعتصر قلبي لحال النساء في هذا الوطن؛ إنها المرأة حين يقع على كاهلها وجع الحرب كله.

هل فهمت ما أعني؟!!

غصّ حلق وحيد بمرارة لا حد لها؛ المصيبة يا صديقي أننا نفهم ما يدور حولنا؛ نفهم ونعجز عن تغييره وأحيانا الاحتجاج على حدوثه.

نهض ماجد وهو يقول:

- قم بنا نذهب إلى شاعرنا عبد المولى سيسعد كثيرا برؤيتك.
- أتقصد "عبد المولى الصبري" ظننته ترك البلاد في من تركها.
- لا؛ لم يفعل رغم كل ما ناله وما آل إليه حاله؛ عاد من صنعاء مثقلاً بالقهر والفقر؛ يلتحف الأرصفة بين العقل والجنون. صديقه ورفيق عمره طعنه في الظهر واستولى على مال شراكتهما مستغلا رميه في المعتقل بحجة مناهضة الحوثيين بقصائده؛ من سوء حظ عبد المولى أن صديقه هاشمي يحسن جمع المال وليس شاعرا يحسن نثر الكلمات عن الوطن والوفاء.

مضيا في طريقهما يخلفان ركام بعض المنازل التي وصلتها قذائف الحوثيين؛ كان الشارع مكتظا بالحياة والأطفال كأنما لم تمر الحرب من هنا.

مشهد الأطفال يتنقلون بعبوات الماء الثقيلة بين منازلهم وخـــزان الماء المتوقف وسط الحي هو الصورة الواضحة للحرب.

كان عبد المولى يفترش الرصيف فعلا يحدق في اللاشيء ثابـــت النظرات كأنه يحلل تفاصيل هذا الفراغ؛ لم يلحظ الرجلين الذين وقفا قريبا منه ولا صوت أحدهما وهو يناديه:

- كيف حالك شاعرنا المجيد؟

التفت عبد المولى نحوه ببطء وهو يقول: أهلا بصديق الجميـــع حتى الأعداء.

ابتسم ماجد بانتعاش وهو يقول:

- لقد جئتك بصديق قديم ستسعد برؤيته كثيرا.

مط شفتيه إلى أقصاهما وهو يغمغم:

- الذين يتساقطون من قلوبنا ومن حساباتنا أكثر من الـــذي تمطر بهم سحب الغيب؛ أنا لم أعد ابكي لفقد حبيـــب أو أسعد لمجيء صديق..

جلس "وحيد" ملاصقا له وهو يحيطه بذراعه قائلاً:

- يكفي سعادتي برؤيتك بخير يا عبد المولى.

التفت عبد المولى مدهوشا وهو يقهقه معانقا وحيد:

- وحيد الأمير.. يا أجمل الطيبين؛ أنت هنا؟ آخر ما سمعـــت عنك أنك مت كجرذان الصحراء الهاربة؛ ملقى على ظهرك تعدد خيباتك؛ متى عدت من الموت؟

عانقه وحيد بتأثر.. يا الله كم أشقت الحرب من قلوب وكـــم هتكت من ستر..

ظل الثلاثة يتقاذفون الكلمات طوال فترة الصباح علـــى ذلـــك

الرصيف كأنه وطن لقلوب الشتات.

تحدثا عن ما حدث لعبد المولى من سرقة ظاهرة لأمواله؛ وحين سأله "وحيد" هل واجهت صديقك بما كان بينكما؟

قال وهو يقف موليا ظهره للرجلين:

- يا صديقي أنا لا أجابه أحد بما فعل فهذا العالم متسخ كثيرا؛ يكفيه أني أحتقره في أعماقي.

ثم أنه غير جدير حتى بعتابي لشدة سوء فعله؛ لا أستطيع أن أحمل أحد أخلاقا لا يستطيع أن يحملها في قلبه.

كان عبد المولى شاعرا.. وأصبح شاعرا بكل القهر والخديعة اللذين لاقاهما في حياته..

***

مؤخرا لم أعد أحترم الأشخاص السعداء

أشعر أنهم يخونون هذا الوطن التعس..

(5)

لقد قطع هذه المسافة الطويلة من أجلهما؛ من أجل صداقة عمدها أبوهما بالدم والتضحية.

قطع مسافات "باعد بين أسفارنا" من أجل طفلين لا يتذكرانه، فآخر مرة رآهما كانت فيها رهف مولودة صغيرة ورعد لا يعي وجوه أصدقاء أبيه؛ كان ذلك قبل أن ينزح بهما "أحمد النويرة" من صنعاء إلى ريف تعز.

أتى من أجلهما وها هو خائف كثيرا من النظر إلى وجهيهما الصغيرين..

خائف أن يرى ملامح رفيق دربه وصديقه الأقرب في طفليه..

خائف أن تجتاحه ذكرى تلك الأيام المضنية حين ترك صديقه يواجه الاعتقال والموت تحت التعذيب فيما آثر هو الهروب إلى مأرب.

في مدخل البيت الريفي المتواضع وقف مع خال الطفلين ينتظرهما فيما توارت زوجة صديقه بعد ترحيب قصير..

أحنى رأسه احتراما لصوتها المتهدج وهي ترحب به؛ خاطبها بانكسار يرزح تحت عبء الحياة بعد ذلك الصديق النادر.

لا شيء يمكن أن يُقال لزوجة معتقل قُتل زوجها هرسا تحت أدوات التعذيب.

السعادة التي أطلت من ملامح الصغيرين لرؤية الألعاب ودفاتر التلوين كانت بلسما لقلب وحيد؛ قضى اليوم برفقتهما وخالهما يتجولون في أزقة القرية وحقولها؛ يشيران إلى وحيد عن أماكن اللعب وبطولاته؛ وذلك المبنى الذي يُعد مدرسة القرية؛ يدركان تماما أن هذا صديق الأب الغائب وكأنه سيخبر أباهما بكل الأعمال التي يقومان بها؛ تباريا في إخباره بنشاطهما وأعمالهما التي تسر والدهما.

والدة الطفلين معلمة؛ حين أوصلها زوجها إلى ريف تعز بعد اجتياح صنعاء وعاد من أجل عمله آثرت أن تقوم بتدريس تلامذة القرية في عمل تطوعي منها؛ كانت بلا راتب وتشعر بفداحة الفراق والخوف على زوجها؛ رفض مناشداتها للبقاء في القرية وآثر العودة إلى العاصمة على أن يرتب للاستقرار في مدينة تعز..

تباعد الحلم بمرور الشهور وتبخّر حين تم اعتقاله.

شهور مضنية من الحزن والبحث عنه؛ تنتهي بخبر مقتله تحت التعذيب؛ أتى بالخبر شخص خرج من المعتقل بعد أن حمل جثمان زوجها بين يديه وهو يحتضر.

كانت آخر كلماته كما قال الرجل حين أوصى أن يهتم صديقه "وحيد" بطفليه.

تتساءل: جثمانه أين هو؟ هل تم دفنه؟ هل رموه في العراء؟

وتعود لتخاطب نفسها: لا يهم، سيظل ماثلا في خيالي وذاكرتي كآخر مرة افترقا فيها؛ متفائلا باللقاء بنا في أقرب وقت.

تواسي وحشتها أن لا فائدة من رؤيته وقد هشم التعذيب ملامحه ومحى ابتسامته المتفائلة فهذا سيدمر روحها أكثر.

لكنها رغما عنها كأنها تنتظر عودته؛ كأنما سيأتي صديق آخر له كما أتى السابق ليقول لها إنه لم يقتل؛ وإنه حيّ وسيعود لها ولطفليه وسيبقى في تعز كما وعدها.

غير مصدقة أن ذلك الوداع المفعم بالتفاؤل ينتهي بقتله تعذيبا على أيدي أقبح البشر.

عندما اتصل صديقه "وحيد" يخبرها أنه سيزور الطفلين بعث في صدرها كل أوجاع الشهور السابقة التي تكابدها على أمل يائس؛ لم يكن زوجها ليفترق عن صديقه هذا..

ماذا لو كان معه كما كانا دائما..

إن أعظم الخيبات ما كان على أمل..

لقد قُتل زوجها بأقسى طرق الموت؛ لكن طفليه يجب أن يعيشا حياة مستقرة فلا يفقدانها باليأس كما فقدا أباهما بالموت.

يجب أن تتجاوز فكرة أن ترى جثمانه كي تقطع الأمل؛ لطالما سمعت عن معتقلين يُقتلون تحت التعذيب ويُدفنون في أماكن مجهولة أو مقابر جماعية لا يُعرف أصحابها؛ لكنها لم تكن تتخيل أن يكون زوجها أحد هؤلاء المقهورين.

المقابر لا تُحفر إلا لهذا الشعب ليس في مناطق الحوثيين فقط؛ سبق وعُثر على مقابر في عدن وفي تعز.

الطغاة في كل مكان، حتى وإن أخفوا جثث الضحايا ستظل أرواحهم لعنة تطارد القَتَلَة؛ وستظل عذابات الأرامل والأيتام أرواحا

مفعمة بالانتقام كأنما كل روح هي أرواح مجتمعة، روح القتيل وأرواح من بعده.

***

في إحدى استراحات جبل صبر المطل على تعز اجتمع مع رفاقه القدامى في جلسة وداعية قبل سفر وحيد؛ يتذاكرون رفاقاً لهم غيبتهم الحرب أو قلبت أحوالهم؛ ما أكثر الرفاق في الشتات وما أكثرهم في القبور وما أشد ألم من غيرته الصروف!!

جلس سمير يتحدث عن رفيق دربه الذي تحول فجأة إلى شخص لا يشبه ما كان عليه؛ كيف تنكر للصداقة والعشرة بينهما؛ يتكلم بألم كأنما لو غيبه الموت كان أهون.

يسرد كيف أصبح مشرفا حوثيا ينهب ويطارد من كانوا رفاقه المقربين بحجة معاداة حركة أنصار الله التي ينتمي لها.

حينها قال غياث:

- هو من أبناء عمومتي من السادة وطبيعي أن ينقلب على كل شيء ملتحقا بالحوثية.

صدمت وحيد عبارة غياث التلقائية..

هذا "غياث" صديقه الذي يبغض الحركة الحوثية ويحاربها ما زال يؤمن أنه سيد من فئة السادة الأشراف..

هذا التفاضل لا يكون إلا بوجود العبيد من لم ينلهم شرف الانتساب لهذه السلالة الهاشمية.

شعور الأفضلية كامن في قلوب الأسوياء منهم، مهما أخفوه وراء مئات من الأسباب، ينكشف مع زلة لسان أو تصرف غير مقصود.

استطرد غياث بضيق:

- بسبب هؤلاء حصدت الأسر الهاشمية الكراهية والعدائية من شريحة كبيرة من اليمنيين؛ إن لم يكن كلهم؛ وليست كل الأسر الهاشمية راضية بما يحدث أو على الأقل هناك أفراد كثيرون يرفضون باستماته ما يحدث بسبب دعوة ابن بدر الدين الحوثي.

المؤلم أن رفاق هؤلاء الضحايا لا يثقون تماما بتنصلهم من دعوى الحوثية؛ يرونها تقية أحيانا؛ وأحيانا أن لديهم أسبابا خفية وما يلبثون أن ينقلبوا على الشرعية وما يقولون.

هناك من يظن بوجود تخادم بين الأسر الهاشمية في الشرعية والانقلاب لمصلحة الولاية وحكم الهاشميين لليمن.

ضحك وحيد قائلا:

- لكننا نثق بك وبوطنيتك يا غياث؛ نثق أنك مثلنا تؤمن أن لا أفضلية لسلالة ولا لشخص على أحد؛ أنت لا تؤمن أنكم سادة ونحن قبائل أقل شأنا أليس كذلك؟

هتف غياث بحماسة زائدة كأنما ينفي عن نفسه تهمة:

- طبعا.. طبعا يا وحيد؛ ماذا جرى لك؟ تعلم كما أعلم أننا للأسف أجيال تربينا على هذا التقسيم المجتمعي المرفوض؛ تربينا عليه كمسلمة وهو جريمة في حق ديننا وإنسانيتنا.

أنا لست هاشميا.. أنا يمني. كم من الأرواح في سلالتنا تنبض بحب الجمهورية وتتنفس الحرية وتنكر ما آل إليه حال اليمن؛ لكنكم انتزعتم هذا الحق حين وصمتم كل هاشمي بختم الإمامة والاستبداد

والأفضلية.. لم يعد يجدي دفاعنا عن وطنيتنا ضد موجة الكراهية والاحتقار التي تتنامى في قلوب الناس، خاصة طبقة المثقفين والواعين.

أحيانا أشعر أنه لن يثق أحد بإيماني بهذا حتى لو اخترت قتال أبناء عمومتي الحوثيين وسقطت شهيدا على مبادئي؛ سيجد الكثير من غلاة العنصرية المضادة سببا لمقتلي غير ما ارتضيت لنفسي.

بل إن هذا قد حدث فعلا لشاب من أسرتنا أعرفه وعايشت قصته ومدى كراهيته للعنصرية الحوثية وسمعت بأذني من يتشفى لمقتله على أيديهم.

رد سمير بحنق وقد فقد أعصابه:

- العنصرية الهاشمية، التي قسمت المجتمع اليمني إلى طبقات وصنّفت عباد الله إلى سيد وقبيلي وجزار ومزين وشريف وطرف، هي أيضا صنّفت السلالة الهاشمية إلى طبقة الضحايا وطبقة المستفيدين.

لا ننكر أننا لعقود عشنا مع فريق من الأسر الهاشمية كيمنيين تماهت بيننا الألقاب؛ درسنا معا وتزوجنا منهم وتزوجوا منا.

وفريق آخر، برزت منه عائلات أوجدت لنفسها تميزا معدوما، وعزلت نفسها، فلا مصاهرة ولا مداخلة مع اليمنيين، إلا كبشر أقل مكانة.

هذه الأسر النافذة، جاهاً ومالا، هي التي أفسدت حياة اليمنيين والهاشميين على حد سواء. هي أشبه إلى حد كبير بعائلة روتشيلد الشهيرة تنظيما وحرصا على التأثير.

في معاركهم الشرسة، في سبيل الحكم وضد الجمهورية، قضى آلاف من أبناء هذه السلالة دفاعا عن أطماع المتحكمين منهم. عائلات قضى منها ثلاثة وأربعة في المعارك، إتباعا لوهم الأفضلية، الذي بات مقتصرا على الهاشمية السياسية.

لقد أوشكت أسر منهم على الانقراض، وصارت بيوتهم خاوية من الرجال، تزدحم بالإناث فقط. وليست، بطبيعة الحال، سوى تلك الأسر التي تأتي في المستوى الأدنى والأقل قيمة في السلالة.

ومن هؤلاء بالذات تتعالى أصوات تستنكر عنصرية اليمنيين ضدهم؟!!!

نعم؛ كل ذي نفس سوية سيرفض العنصرية، ولن يواجه العنصرية بأخرى، إنما لا توجهوا لومكم إلى الإنسان اليمني الذي عانى طيلة قرون من ظلمكم وجبروتكم، وتطالبونه بالإنصاف في نظرته الكلية إلى هذه السلالة.

لا تتحدثوا عن العنصرية، وفي قلوبكم مثقال ذرة من شعور بتميز أو أفضلية. فحتى خطاب البعض من سلالتكم يثير الضحك والسخرية، حول كونهم سادة طيبين ومتواضعين اقتداء بجدهم عليه الصلاة والسلام.

نحن لم نتفق أساسا، على أن النسب المزعوم للنبي، فيه فضل أو وجود.

إن أي هاشمي يخالجه أدنى يقين أن جده هو محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه حقا من آل البيت، وله فضل الانتساب للنبي، فهو مصاب بلوثة عقلية، وعليه أن يثبت نسبه هذا بفحص الـ DNA،

وإلا فهو مجرد هراء نازي. وإن ثبت، فلا يثبت إلا أنه كبقية النـــاس، ليس إلا.

كان الأولى، بمن ينكرون فعل الحوثيـــة مـــن الهـــاشميين، أن يشكلوا كيانا منفصلا يعلن تبرؤه من الحوثية وأفعالها وأطماعهـــا وانقلابها على الدولة وكل جرائم الحرب التي ارتكبتها في حق هذا الشعب.

كان عليهم تشكيل كيان يندد بهذه العنصـــرية أولا، ويســـعى لكفّ أيدي أبناء عمومتهم، من الهاشميين، عن العبث في هذا الـــوطن ونسيجه الاجتماعي..

بدلا من لوم الضحايا على موجة الكراهية الطبيعيـــة كســـلوك بشري لمن يتأذى.

عمّ الصمت بعد حديث سمير المنفعل..

آلمت كلماته رفاقه كلهم؛ وظهر التأثر في نظـــراتهم؛ يبـــدو أن الانقلاب أحدث شرخا في النفوس أعمق مما يمكن ردمه لعشـــرات السنوات القادمة.

***

كانت زيارتي الأخيرة إلى تعز منـــذ فتـــرة طويلـــة برفقـــة أحمد النويرة، كنا هناك لقضاء إجازة عيد، ومررنـــا بمـــدينتي إب وتعز.

طفنا كل شوارعها الهادئة والصاخبة، وزرنا أجمل الأماكن فيها، وعشقت كل شيء فيها ما عدا ذلك الحر الشديد الذي يكويهـــا، في حين أن إب غارقة في البرد.

لم نكن نعلم أن المدينة الساحرة كانت على موعد مع العواصف الأشد حرارة، كبقية مدن اليمن، إلا أن لهيبها كان مستعرا أكثر من كل المدن.

على الأرجح أن أخبار هذه المدينة غطّت على 80 % من اهتمام نخبة اليمنيين على مدار سنوات الحرب. مدينة ساخنة الأحداث دوما، تثير دهشتك وحنقك وفخرك.

مدينة المشاقر والمقابر الجماعية؛ مدينة الكتاب والكلاشنكوف؛ القلم والقناصة؛ المدينة التي نادت بالمدنية فامتلأت بالمسلحين والرصاص..

وقفت سدا منيعا أمام الحوثيين، في عناد ودراية بجريمة الاستسلام. ومع ذلك تدير ظهرها إليهم، بين فينة وأخرى، لتقوم بإهاء خلافاتها الشخصية في شوارعها الخلفية بصلابة، تثير ضجيج وصراخ كل من في خارجها.

لعل ما يحدث فيها ليس خلافات رفاق السلاح؛ بل إثبات وجود مفروغ منه؛ تضحيات المقاومة، خلال سنوات الحرب الأربعة، لن تسلم لأي أحزمة ناسفة خارجية.

يمكن للمدينة الحالمة أن تكون لبوة كاسرة، حين تمسّ كرامتها واستقلالها، وستقطع بقوة أصابع العبث بشرفها كمدينة يمنية ذات سيادة.

يسقط الأطفال، وهم يلعبون بشظايا طائشة؛ برصاص طائش من قلوب وعقول طائشة..

تصرخ طفلة في تعز: "آه يا قلبي". ربما تذكرت استغاثة قرينها، حين استعطفهم قبله: "لا تقبروناش".. لكنه دفن مع صرخته..!!

تعز، أطفالها يحملون أوجاع الكبار، وكبارها يلعبون بمصيرها كالصغار..!!

تتقلب تعز بين أتون الحرب، ومظاهر السلم، بسرعة الضوء؛ فليس غريبا أن يشهد شارع جمال مواجهات مسلحة صباحا، وفي المساء جولات الناس وهم يتسوقون بحثا عما يقيم أودهم..

حصلت تعز على جرعة مضاعفة من معاناة الماء والكهرباء بفعل الحرب. بالإضافة الى حصار خانق يحرمها إيصال المواد الغذائية.

ولأن الحياة لا تنتظر أن تنتهي الحرب كي نعيشها، بل يجب أن نعيش بالممكن المتاح، هذا ما فعلته تعز: تعيش بالممكن المتاح وتكافح كي تعيش أيضا..

عاد الكثير ممن نزحوا ورمموا بيوتهم دون انتظار لإعادة الأعمار.. إنه النضال بنكهة العناد لهذه الحرب. يمارسون حياة طبيعية قريبا من حياة الحرب القاسية.

تفتح الأسواق عقب الاشتباكات؛ وتقام الفعاليات الثقافية التي تحلم بالسلام على وقع المدافع. تفتح الجامعات على خط التماس ويهرع الطلاب للدراسة رغم القصف..

يكفي تعز أنها شهدت مظاهرات حزبية في واقع هذه الحرب.. هذا النشاط، بحد ذاته، أمر عظيم في مدينة تنادي وتسعى إلى دولة مدنية. هذه الدولة المدنية، التي لن تقام إلا بقوة القانون، الذي يحترم حق المدينة في حريتها ومصيرها.

تعز "عزها باقية"، لا شيء باقٍ سواها..

تظل تعز معشوقة القلوب.. عصية على النَّيْل منـــها.. مدنيـــة وحالمة وحرة.

وأنا أغادرها عائدا إلى مأرب كنت أودع فيها روح أحمد النويرة في طفليه رعد ورهف، وأمهما الصامدة كجبل من الصبر.

***

حتىٰ الملائكة يا صديقي يمكنها أن تؤذيك؛

فالقائم بالموت ملاك لكنه مكلف بقبض روحك..

(6)

ما أسوا أولئك الرواة الذين يختزلون في سطر صغير مدة مر فيها عمر كبير؛ ربما انتقلت أنت فيه من الشباب إلى الشيخوخة في سطر..

إنهم يحطون من شأن وجعك خلال ذلك الزمن المتقلص في كلمات؛ ألم الانتظار لا يُحسب بالزمن المتعارف عليه؛ الثواني فيه أعمار طويلة لأمل يصارع الموت كل ثانية.

لقد شاخ انتظاري وصار عجوزا نكدا يبكي لأتفه الأسباب؛ لم يعد فيه شيء يضيء سوى عينيه يرقب من نافذتي الضيقة تلك الأعداد الهائلة للجدران المتراصة قبالته كل حين؛ جاثمة فوق قلبي خرسانات المسلح هذه.

انتظرتك..

ثم انتظرت رسالة منك؛ ثم تمنيت لو أنك تلقي التحية فقط؛ ترميها في وجهي؛ ثم تتوارى كعادتك هاربا؛ لكانت تكفيني حروفها لأنسج منها بساطا يأتي بك؛ كنت لأغفر لك كل خذلانك لي؛ وأعتذر عن رسالة الحكم بموتي رحيلا عنك.

لكنني أنتظر وهم خيالك ليس إلا.

في ازدحام الخيالات الضبابية يبقى خيالك هو الأكثر واقعية رغم أنك لست حقيقة!!

عليّ أن أعترف لنفسي أني أبدعت في صنعك أكثر من كل شخوص كتاباتي الفاشلة؛ وأنك كنت تتنقل في دمي كما تتنقل تلك الشخوص في حبر أوراقي!!

كان لا بد أن تخرج من دمي لهذا أنا أنزفك بلا توقف؛ شهور أو سنوات لم يعد الزمان يعنيني؛ أنا وحيدة حتى العظم يا وحيد!!

هذا كل ما أشعر به بين ضجيج الكلمات التي أنزفها على كيبورد جهازي المحمول الذي يتحمل هذياني بصمت.

أحيانا أتساءل ما جدوى بقائي في هذه الزاوية المصمتة؛ أتأمل من نافذتي جدران تتلوها جدران تكتم أنفاسي على مد البصر.

لماذا لا أنتعل لامبالاتي وأسير؛ سأخترق هذه الجدران عبر فرجات الشوارع الصاخبة، سأعبر حدود التنفس وأنسى زاويتي الباهتة.

لكني لا أريد أن أغادر جدراني..

لا لن أغادر؛ أريد أن أبقى مع نفسي أخشى أن أفقدها كما فقدتك؛ أريد أن أحرسها كي لا تتسلل من شقوق جراحاتي هذه؛ هي تسيل رغما عني.. كل يوم أفقد جزءاً منها مع كل هذه الأدوية المهدئة لنبض الحياة في عروقي.

يؤلمني أنك لست حقيقة في حياتي؛ وأن ملامح روحك داخلي هي من شتات خيالي وأمنياتي.

بوجودك الوهمي داخلي لم أعد أهتم لهذا البعد؛ لقد اكتشفت مع خيالك متعاً تغمرني بالراحة والهناءة؛ وتملأ فراغ غيابك بك فقط.

أجملها أني أتحدث عنك كثيرا مع نفسي؛ أخبرها كم أنت بريء من أفعال القدر التي تقف بيننا كل مرة نقرر فيها أن نلتقي!! هي تخذلني وليس أنت.

كم أنك صادق معي حتى في هروبك مني خلف همومك وانشغالاتك!!

وكم أني أحبك ولا أنتظر مقابلاً؛ فحنان خيالك في رؤى أحلامي كافٍ بعد أن عرفت حقيقة روحك.

أتحدث معك أيضا وكم يسعدني حديثك الذي أثق أنك ستقوله لي كرد لكلامي.

حين أشتاقك أتخيلك في مكان ما.. ثم أؤثث المكان حولك بأشخاص وأشياء حميمية.

وأصنع لوحة أكون فيها أنا موجودة غير مرئية كي لا تفوتني تفاصيلك الصغيرة فيها؛ حين تتكئ؛ تبتسم؛ وتتحدث؛ وأحيانا تصرخ في نقاشك ويرتفع صوتك.

أتخيلك مسترخياً في جلوسك بلا اهتمام كيف سيبدو مظهرك؟ أجده جميلاً في كل حال..

أتخيل كلماتك التي لا تكتبها؛ تلك التي تنطقها في غضبك أو سخريتك أو كراهيتك وأنت على سجيتك ببساطة الانفراد وعفوية الراحة وسقوط التصنّع.

أتخيلك تصنع كل تلك الأمور البسيطة التلقائية التي لم أرها وأعرف أنك تفعلها..

أتخيلك ترفع يدك تتخلل شعرك؛ أو تحك ذقنك بشرود؛ تفرك عينيك وربما تنظف أنفك.

أتخيلك حقيقيا..

لأني أعرف أن الحب أعمى عن رؤية أشياء كـــثيرة؛ وحـــالم لتصور أشياء خيالية.

تبا للفقد أخذني بعيدا في خيالاتي وعـــدت منـــها أكثـــر ولاء للشوق.

فقط لا أدري ماذا أقول لأمي التي تنظر إليّ بفزع كلما رأتـــني أبتسم سعادة حين أتذكر حركات يديك وأنت تتحدث؛ حين تهطل كلماتك على ذاكرتي بلهجة قريتك "بعدان" كما يهطل الغيث على سهولها وجبالها.

أمي التي لا تخفي صدمتها حين تراني أبكي؛ فهي لا تعلم أنـــك في خيالي غاضب مني؛ أو لم تعد تزر أحلامي.

ماذا أقول لها؟

أمي التي لا تعرف أنك تسكنني وأن لا شيء يفوق فقدي لـــك إلا فقدك لهذا الوطن الذي تتحدث عنه طوال الوقت.

لعل أمي لاحظت وجودك في حياتي، فهذه هي المرة الثانية التي فاجأني وجودك على شاشة التلفاز فأوقعت كأس الماء من يدي وأنـــا أطالع وجهك، أما عيناك فقد حجبتهما نظارة.

يومها دخلت حجرتي وبكيت كثيرا ومن حينها قاطعت التلفاز أو المرور أمامه.

***

تأملت والدة عفراء ابنتها بحسرة من يرى حصاد عمره يتلاشى أمام عينيه رويدا.. رويدا.

عفراء المتقدة نشاطا كأشعة الشمس في انتشارها؛ عفراء الطفلة التي لم تكبر وإن هرمت أمنياتها.

لقد خالطت سمرتها الجميلة صفرة الذبول وهي تعتزل مجالسة الناس وترفض الخروج من البيت وتحتجب عن صديقاتها..

مكتفية بالبقاء أمام نافذتها تكتب أو تقرأ أو تتأمل الفراغ فلا نقطة محددة لنظراتها الساهمة.

تراها تذوي أمامها وهي العاجزة عن فعل شيء لها..

تدرك أن قلبها مشطور نصفين بين حبيب حرصت أن يكون سريا عن أقرب الناس إليها وبين طاعتها لأمها؛ لقد شاهدت صورته في هاتفها حين مرت صدفة قربها لتجدها عالقة في عينيه حتى أنها لم تشعر بمرور والدتها.

إنه ذات الوجه الذي جعلها تقاطع التلفاز منذ ظهر على شاشته قبل أيام.

كلما ألحّت عليها بالعودة إلى اليمن ترد بعناد:

- إلى من نعود وقد مات أبي؛ ولماذا نعود ولا شيء ينتظرنا؛ أنت بحاجة لعناية صحية يا أمي و لم يعد لي سواك في حياتي.

ورغم أن الأم أصبحت هي من تعتني بصحة أبنتها المتدهورة إلا أن عفراء تصر على البقاء في القاهرة كل مرة.

شاهدتها والدتها وهي تكلم غطاء شعرها وتقبله مرارا..

صعقت الأم وغشيها حزن مكبوت، لقد ركض الخوف في أحشائها حول سلامة عقل فتاتها الوحيدة.

ولا بد أن تتدارك الأمر بعرضها على طبيب يخرجها من كآبتها وهلوساتها هذه.

لم تكن تدري أن عفراء قبل شهور طويلة عادت في يوم سعادتها اليتيمة من لقاء وحيد، واكتشفت أن غطاء رأسها الأزرق عابق بعطره بعد أن أسندت رأسها إلى كتفه طويلا..

يومها أمطرت الغطاء بالقبلات وطوته بعناية كي لا يفقد عبقه العاطر ووضعته في كيس نايلون وأخفته في أدراجها كأنها تشعر أن هذه الرائحة هي ما سيتبقى من ذكرى لقائهما الأخير.

بعد إلحاح من أمها وتهديد بترك الأكل والكلام قبلت عفراء زيارة طبيب نفسي فقط ليطمئن قلب والدتها أنها بخير.

أقنعها بدوره أن ما تعانيه هو عارض اكتئاب يعاني منه غالبية الناس في مرحلة من مراحل أعمارهم إثر ضغوط نفسية تواجه الجميع، ناهيك عن امرأة عاشت فترة حرب في بلدها.

وهاجرت تاركة خلفها كل ما أحبته، حتى جثمان والدها الذي كان كل شيء لها.

لم تخبر الطبيب أنها تركت خلفها أيضا حب حياتها.. أو ربما حياتها كاملة.

***

حسنا.. أنا أكره المباني الكبيرة في القاهرة.

تنتصب متلاصقة كتوابيت عملاقة تحرمني النظر إلى السماء وتحرمني النظر إلى الأرض. معلقة أنا؛ محاصرة بهذه الجدران الشاهقة؛ وبقلق أمي وملاحظاتها الموجعة.

صارت والدتها تلاحقها بالمباهج، كما تسميها، كما يلاحق الراشدون الأطفال بوجبات الغذاء الصحي؛ تهاتف رفيقاتها خلسة

منها وتطلب منهن مهاتفتها ودعوتها إلى الخروج لرؤية ليل القـــاهرة الصاخب.

تشتري لها وردا كلما خرجت لشراء البقالة!! وتطلب منها سماع صنف من الأغاني لا تحتملها ولا تعرف من نصح والدتها بها؛ ما تثق به أنها نصيحة خبيثة من إحدى صديقاتها لتعذيب عفراء عن قصد.

كان أكثر ما يخيف عفراء أن تفكر والدتها بتدبير زوج لها.

زواج!! لن تفكر في رجل غير وحيد حتى لو خسرت والـــدتها؛ هي لا ترى رجالا حولها أبدا؛ كل هؤلاء الأشـــباح الموجـــودين في الحياة لا تراهم؛ هي تملك قلب أنثى وليس قلب رجل.

- أرجوك يا أمي، أنا متعبة كثيرا، متعبة من نفسي، متعبة من فشلي في كل شيء؛ لقد فشلت حتى أن أحب نفسي فـــلا أعذبها بكل هذا الفشل..

كان يكفيني زواجي الفاشل وتلك الحياة التي لم أذق فيها طعـــم الحياة. لماذا جررت على قلبـــي هذا الحب اليائس..

تراني رفيقاتي محظوظة.. لديّ كل شيء.. نعم لدي كل الفشل الذي لا تعرفه أنثى غيري..

هناك شيء يتحرك في رأسي؛ يسير جيئة وذهابا؛ لا يســـتقر أو يعرف السكون.

لا أدري من أين يأتيني هذا اليقين أن هذا الألم الذي يتشظى له رأسي سيذهب ما أن أضعه على صدرك، واتنفس رائحتك..

أن كل هذا الألم المتطاير في كل اتجاه ستجمعه كفاك ســـكينة وراحة؛ ربما حينها أنام بدلا من كل هذه الأدوية التي تبعثر نومي ولا تجمعه.

لم أخبرك ماذا تفعل بـــي رؤية رجل يشبهك.. رغم أنه لا أحد يشبهك في عيوني أبدا.

سبق ولمحت هيئة أحدهم وكأنه أنت؛ لقد توقف فيّ كل شـــيءٍ دفعة واحدة، ثم أضاء كل شيء فجأة كانفجار قنبلة تطاير لها نـــبضٌ قلبـــي في كل خلية من جسدي فكانت قلباً مستقلاً ينبض بملامحك.

كيف أسعى لنسيانك وكل شيء جميل يـــذكرني بـــك حـــتى وجودي يخبرني أني وُجدت من أجلك أنت.

وأنا أرى الشمس تشرق على البيوت المتراصة في البعيد؛ تنتزعها من العتمة بيتا تلو آخر، أتذكرك حين أشرقت على حياتي وانتـــزعتني من عتمة العدم يوما بعد آخر..

***

تتأمل وجهها كل صباح بقلق.. هل بدأت تقـــاطيع وجههـــا بالسقوط؟

تبا للحياة التي لم تجُد علينا حتى بعام من الذكريات نستضيء به في ظلمة العمر.

يبدو أننا لا نكبر كل عام كما نظن؛ إننا باختصار نكبر دفعـــة واحدة حين يغمرنا الحزن والفقد.

عندما كانت صغيرة كان يطيب لها أن تسير مغمضة العينين في منزلهم الذي كان كل عالمها.

وحين اصطدمت بأخيها ذات تجربة قال لها بعجب:

- لماذا تسيرين مغمضة العينين يا خرقاء؟

فردت بحزن:

- أريد أن أشعر كما يشعر الأعمى حين يهتدي إلى طريقه بلا سند!!

ربما كان ذلك التدريب كافياً للمضي في هذه الحياة حتى لو غابت الشمس أو ذهب وحيد إلى الأبد.

آه يا "وحيد" لم تكن ضياء لحياتي فقط؛ كنت الحياة ذاتها التي خُلقت كي أعيشها؛ وبفقدك فقدت مذاق الحياة كلها؛ لم أعد أجد لشيء طعماً؛ أشتقت لك؛ واشتقت لكل شيء يصبح له معنى بوجودك.

لقد اشتقت لحياتي؛ لكل شيء حتى مذاق الأكل..

اشتقت لذلك الشعور أن آكل بكامل شهيتي وجوعي؛ ويصبح أي شيء أمامي لذيذا.

فقدت تواصلي بمذاق الأكل؛ اشتقت لرغبة الاستيقاظ من النوم كل يوم وما يعقبها من حماسة في أعمالي؛ بتُّ أتمنى مواصلة النوم لبضعة أشهر حتى يأتي صباح مناسب كصباح يوم القيامة مثلاً.

أتمنى أن يصدر مني أي شعور حيال ما يحدث حولي.

أن أبتسم لعارض مضحك؛ أن أبالي قليلا بكارثة حلّت؛ أن أشعر بالحماسة لمعجزة حدثت أخيراً؛ أن أستقبل الأيام الوافدة ببعض السرور ولو مجاملة.

افتقدت متعة السير مسافات طويلة حين كنت أعرف أين أذهب ولماذا خرجت.

سئمت أن تقودني قدماي ويعيدني التعب فصرت آوي لزاويتي هذه وأجول الأماكن بخيالي فقط.

تبا.. أنا لا أشتاق إلا لنفسي التي معك..

وحين يؤرقني التعب والسهر وأؤجل الهدأة إلى المساء فلا أنام نهاراً علّي أضربُ عصفورين بحجر؛ السهر وسكون الليل.. يغلبني النوم كآبة؛ أغمض عينيّ مشوشة من كل هذا الضوء البارد وأغيب.

ينفجر الظلام في وجهي بقوة حين أفتح عينيّ مساء؛ ينفجر بصمت يزيدني كآبة؛ لماذا تركتني أمي أنام هذا الوقت؟

وداع الضوء مع الغروب أمر حزين لكنه مريح التدرج؛ صدمة فقدانه بالنوم نهارا تشبه الفاجعة..

هكذا بعض الحقائق فاجعة ظلام تنفجر في قلبك ورأسك.

من وصف الحقيقة بالنور والضوء كان واهما؟ أو أحمق، كل حقائقه كذبات زائفة؛ خيالك فقط هو الضياء.

كثير من الحقائق لا تترك في قلوبنا سوى السواد؛ نحن نحاول تبييضها بالكذب على أنفسنا..

بالأمس دعت أمي بعض الرفيقات إلى منزلنا؛ تظن أمي أن ما ينقصني هو الرفقة الطاردة للكآبة بحسب وصفها؛ لذا تشعر أنها تصنع صوابا بخلق عالم لم أعد أحتمله.

ما ينقصني هو أنا الذي كان يوما أنت.

لا أدري لماذا صارت أحاديث النساء في نظري تافهة؛ حتى وهن يمتهن عمل الصحافة وجل أحاديثهن في السياسة ووضع البلاد؛ فلم تعد أحاديثنا إلا عن اليمن الذي يهوي أمام أعيننا فنهوي معه في الشتات.

أحلام الوطن والعودة تبتعد كل يوم هنا؛ الوطن البديل يشغل أذهان النازحين في الشتات كما يشغل قلوبهم ذلك الوطن الذي تركوه في أيدي القهر والقمع.

في جلستنا المرهقة تلك نال غلاء المعيشة في القـــاهرة النصـــيب الأوفر من النقاش والتأوهات؛ وتوارت المجاعة الحاصلة في اليمن عـــن خواطرنا؛ ربما لأننا لن نشعر بها حقيقة، فأخبار مواقع التواصل عـــن الجوع والفقر والمرض لا تشبه معايشتها كل يوم أبدا..

رغم أن هذه المواقع صارت أشبه بواقع يعايشه النازحون كـــل يوم ولحظة بلحظة.

في القاهرة إذا كنت حريصا على الحديث بلهجتك ولكنتـــك سيسألك أي شخص وأنت تتجول: من أين أنت؟ وستثير شـــفقتك الوطنية الردود على إجابتك أنك يمني..

الجميع يدعو لوطنك بالفرج؛ الجميع حزين لما يحدث في اليمن، والكل مصدوم لحالة التشرد التي يعيشها هذا الشعب الطيب؛ الجميع متعاطف لما صنعته الحرب فينا.

"طيارة العيانين" صارت تحمل الفارين والمشـــردين والنـــازحين بتقارير طبية أيضا.

تحمل السياسي الهارب والإعلامي المطارد والجريح الذي يتعالج؛ ومئات من الأسر التي تبحث عن حياة سهلة بعيداً عن وضع الـــيمن الصعب.

"ربنا يفرج عنكم ويردكم إلى وطنكم".

عبارة تهطل لها دموع القلب بصمت وتلحقها لعنات ســـرية على كل من أوصل اليمن إلى هذا الحال المزري الذي آلم القريب والبعيد.

تظل غريبا حتى بين أناس كأهلك يحملون كل التعاطف لوضع وطنك.

رغم تركي لمواقع التواصل وأخبارها منذ سفرنا، إلا أني أشعر أني هاجرت بجسدي فقط؛ كانت روحي هناك في اليمن لم تغادرها منذ افترقنا قبل شهور طويلة كدهر.

تركتها كي لا تطالعني كتاباتك وصورك وأحاديثك التي تتركها خلفك هنا وهناك..

ابتعدت؛ لكني احتفظت بوجهك في هاتفي أحادثه كلما اشتقت للحديث معك؛ أطالع ابتسامتك فأبتسم.. من يستطيع أن يقاوم الابتسام حين يرى صاحب الابتسامة؟!

ما إن أراها حتى أغفر لك كل شيء.. كل شيء حتى غيابك وابتسم من بين الدموع.

كل الناس غبار.. غبار أيها الأمير ووحدك المطر.

فمتى تكون هنا؟

متى ألمح أسمك على شاشة هاتفي؟ متى أرى حروفك تناديني "تعالي أحتاجك" فآتي إليك أتعثر بشوقي وصمتي؟ متى تكون حقيقة يا وحيد؟ فقد تعبت من مناجاة ظلّك طوال الوقت.

أتساءل أحيانا هل كنت حقيقة يوما ما؟ هل أنت حقيقة قائمة أم أني تخيلتك بعض ضياء؟!!

***

لن تمشي خطوة واحدة في مجتمع ملغم بالجهل حتىٰ لو كـان مصباحك الوعي.

(7)

تعالى صوت شقيق زينب قادما من حوش المنزل وهو يناديها بإلحاح:

- زينب يا زوجة الشهيد، أين أنت؟

أطلت من نافذة المنزل الحجري في الدور الأول حيث تقع حجرتها مع ولديها منذ عادت بهما إلى ذمار.

كانت تمتعض من إلحاح أخوتها على مناداتها بزوجة الشهيد؛ فهذا اللؤم الخبيث يجعل ولديها يتذكران مقتل والدهما في قصف معتقل مدرسة الشرطة ويتيح لأخوالهما تصوير مأساتهما على أيدي طيران التحالف فقط؛ كانت تتمنى الإنصاف وذكر جرم اعتقاله من قبل الحوثيين وإيداعه هو وآخرين في موقع معد للقصف كدروع بشرية.

صارت لا تحتمل هذا التحريض والتعبئة الموجهة لعقول صغيريها؛ ولا تحتمل تصوير حركة الحوثية التي جرت البلاد للخراب على أنها المدافع عن هذه البلاد.

يؤلمها صغيرها حين يردد شعار الصرخة بحماسة؛ غدا سيكبر مؤمنا بسيادة أولياء الله!!.

قطع أخوها سير أفكارها وهو يقول بعد أن ألصق وجهه بنافذتها:

- أعدي نفسك يا زينب، سنسافر أنا وأنت إلى مأرب حيث الدواعش المرتزقة؛ فأنا بحاجة إلى جواز سفر بشكل عاجل، ولا تُقبل جوازات دولتنا إلا منهم.

ضحكت بسخرية مريرة قائلة:

- يا له من عار ألا تعترف مطارات العالم بجوازات دولة سيدكم الغبي؛ وأن تضطر للتعامل مع المرتزقة الذي تقاتلهم من أجل أن يمنحوك ورقة سفر..

أليس لديكم عقول كي تفهموا جناية السيد في العبث بأبناء البلد الواحد؟!!

- أغلقي فمك يا زينب ولا تجعليني أغضب؛ أخاف أن يسمعك واشٍ فتهلكي أخوتك بخفة عقلك؛ لولا أني مضطر لأخذك معي ما وقفت لأسمع وقاحتك هذه.

لقد انقلبت الآية وأصبح الرجل يحتاج محرما من النساء كي يمر في نقاط التفتيش لمرتزقة التحالف.

صرخت زينب بغيظ:

- لا تكذب؛ إنما هي نقاط التفتيش التي صنعها الحوثيون كل عشرة أمتار لابتزاز وسرقة الناس؛ في كل متر تجد من يفتش في أحشائك ليستخرج فضلاتك ويسرقها.

كزّ على أسنانه وهو يمسك قبضان النافذة بغضب:

- قلت لك أخرسي يا زينب.. أخرسي وأعدي نفسك للسفر عقب الغداء فلا وقت لدي؛ سأذهب للبحث عن وقود للسيارة ولا أدري كم سيكلفني إن وجدته.

قهقهت بسخرية مرة أخرى قائلة:

- بركات سيدكم؛ عليك أن تملأ سيارتك وقود من مـــأرب، ربما المرتزقة أكثر رحمة من القتلة.

انصرف شقيقها وهو يلعن جنس النساء جميعا؛ هكذا الرجال في بيئتها يجدون النساء أقل قدرا؛ ولا يحق لهن النقاش مهما كن علـــى صواب.

وهي تعد حقيبة لثياب أخيها وأخرى لثيابها طـــرأ في خاطرهـــا فكرة جعلت أحشاءها تتلوى وتقفز إلى حلقها؛ ماذا لو سافرت هي واستفرد شقيقها الآخر بولدها وأخذه إلى الجبهة؟!!

لقد رأت أطفالا أصغر من ولدها جثثا ممزقة يعودون لأمهـــاتهم؛ المحظوظة فقط عاد جثمان صغيرها الشهيد المقاتل.

لن تسافر إلا بصغيريها مهما كان الأمر؛ فكرت أن تأتي لأخيها بالحيلة فهو رغم تهوره وتمسكه برأيه إلا أن فيه قليلا من الحمق يجعل من السهل توجيهه دون أن يدري.

حين عاد للغداء قالت مبتسمة:

- ما رأيك أن نأخذ الولدين معنا؛ سنبدو كعائلة تســـافر إلى مدينتها ولن تضايقنا النقاط الكثيرة؛ بل ربما يرأفون لحالنـــا بوجود أطفال صغار ولا يتركونا ننتظر كثيرا على المعابر.

أطلق ضحكة مجلجلة وهو يقول الحقيقة لأول مرة:

- آه يا أختي أشعرتني أننا في دولة تحترم حق الطفولة؛ أنهـــم يُقتلون كالنعاج بلا أي مشقة أو اهتمام؛ لكنها فكرة جيدة لنأخذهما كي يعرفا المدينة التي يحتلها قتلة أبيهم.

ابتلعت احتجاجها الدائم فقد سئمت مناقشة عقله الذي يبـــدو واعيا لكل شيء لكنه يصر على أن يخوض مع الخائضين.

سيسافر معها صغيراها، وهذا هو المهم؛ ربما تجد هناك في مأرب أبن جارتها المسكينة فهو لم يعد بين القتلى ورفاقه العائدين يقولون أنه سلم نفسه للجيش الوطني طالبا منهم أخذه معهم.

ستسافر، فقلبها منشرح لهذا الرحيل لأول مرة.

***

في مأرب عند ذهاب شقيقها في مبنى الأحوال الشخصية غادرت زينب الفندق بعد أن أوصت صغيريها بالبقاء أمام شاشة التلفاز في استغلال وجوده الذي يفتقدانه في ذمار بسبب انقطاع الكهرباء والحرمان من برامج الأطفال.

لم تكن تدري أين تذهب تحديدا؛ لكنها سمعت عن منظمة تهتم بالأطفال الذين تم تجنيدهم من قبل المليشيا وتقوم بالعناية بهم وتأهيلهم للحياة بعد بشاعة خوض الحرب.

استقلت أول باص أجرة صادفها؛ وأخبرت السائق بالوجهة التي تريد؛ تكفل السائق بالحديث عن المنظمة والآنسة سماح التي تديرها وسرد قصصاً كثيرة عن أعمال المنظمة والأطفال الذين ترعاهم.

و لم ينسَ أن يعطيها رقمه قائلا:

- صالح السلامي إذا احتجت أي مشوار في مأرب سأكون موجوداً من أجلك.

نصحها أن تبحث عن الآنسة سماح التي ستبحث لها في كشوفات الأطفال عن اسم ابن جارتها.

حين وصلت مبنى المنظمة شعرت بطمأنينة كبيرة؛ هذا المكان ملاذ الطفولة بعد شقاء الحرب والمواجهات المسلحة.

سألت عن "سماح" التي كانت تقف في الرواق مع إحدى العائلات، يبدو أنها تجشمت مصاعب كثيرة حتى وصلت لاستلام ولدها؛ فقد كان الأب مقعدا والأم تبدو في حالة تأثر بالغ.

أما الطفل الذي أغرقت الدموع وجهه فكان يتنقل بين أحضانهم في نشيج متواصل.

رغم انشغال سماح باستقبال عائلة الطفل "حاتم" بعد تعافيه من صدمة موت رفيقه أنور؛ إلا أنها استقبلت السيدة القادمة من ذمار بكل ترحاب ودعتها إلى مكتبها بعد انصراف الأسرة في مشهد مؤثر كادت دموع زينب تتساقط لوقعه على نفسها.

تألمت سماح لحديث المرأة عن طفل جارتها الأسير وكونها تسأل عنه رغم عدم معرفة والدته بذلك كي لا تعلقها بأمل زائف؛ لم يكن اسمه موجودا في كشوفات المنظمة.

قالت سماح بأسف وهي ترى الدموع تنهمر من عيني زينب:

- ربما يكون مفقودا أو هاربا لجأ إلى مدينة أخرى، يحدث هذا كثيرا؛ يحزنني أني لم أستطع مساعدتك عزيزتي؛ أرجوك أن تخففي عنك وألا تبكي.

لكن دموع زينب تدفقت بلا حسبان منها؛ كانت تشعر بالكبت طوال هذه الشهور؛ تشعر بالقهر والغبن وتحتاج فقط لدبوس حزن كي تنفجر بالبكاء بلا نهاية.

أثر فيها كثيرا مشهد عائلة ذلك الطفل المدعو أنور حين التقى بهم في الرواق؛ بكاء والدته ومشهد والده المقعد الذي قطع هذه المسافة كلها كي يرى ولده حيا.

فجأة وجدت نفسها تقص على سماح قصتها كاملة؛ كفاحها مع زوجها؛ واستشهاده؛ وعودتها إلى أهلها وما تعانيه من أشقائها في تربية ولديها وخوفها عليهما أن يأخذوهما بعد أن يدمر فكرهما بكل تلك الخزعبلات.

رق قلب سماح كثيرا لهذه المرأة الشابة التي تعاني فوق طاقتها من الكرب والصعوبات.

نهضت سماح من خلف مكتبها بحدة واقتربت من زينب ممسكة بكلتا كتفيها محدّقة بعينيها الدامعة بثبات قائلة:

- اسمعي يا زينب لعل أسوأ شعور قد ينتابنا هو الخوف؛ أسوأ حتى من الألم والحزن؛ الخوف فقط يحرمنا أن نتقدم خطوة واحدة؛ بقائك رهينة إرادة إخوتك لن يصادر حريتك وقرارك فقط بل حرية طفليك وعقليهما؛ يجب أن تبقي في مأرب ولا تعودي مع أخيك..

اتسعت عينا زينب برهبة وهي تقول بصوت متهدج:

- لا أستطيع.. كيف يتسنى لي العيش وحدي وأنا أرملة؛ من سيعيلني أولاً ومن يحميني ويقوم بحاجتي؟
- هذا ما يهيئه لك خوفك؛ أخبرتني أنك عشت في صنعاء شهورا طويلة وأنت في حكم الأرملة؛ وحيدة لا أحد يقوم بشأنك إلا أنت؛ تعيلين نفسك وتكافحين انتظارا لخروج زوجك من المعتقل، ما الفرق الآن؟

همست زينب باستسلام:

- الفرق أني كنت أعيش على أمل عودة زوجي؛ كنت أظنها أيام عذاب وستنتهي وأسلي قلبي بالصبر والحب حتى

يعود.. الآن أنا أعيش كيفما اتفق يائسة من كل شيء.

ردت سماح بابتسامة واثقة:

- وطفليك أليسا حب حياتك ومن حقهما عليك أن تبحثي لهما عن حياة حرة؟

أطرقت زينب وقد حاصرها الإحباط:

- نعم لكني عاجزة أن أعيلهما..

لكن سماح لم تترك لها فرصة لليأس:

- سأساعدك بإيجاد عمل؛ ألم تقولي إنك ممرضة؟ سنجد لك عملاً؛ هنا وفرة موجعة من الجرحى الذين يحتاجون لرعاية؛ ثم أنك على قدر من الوعي والتثقيف ستبقين هنا في المؤسسة لمساعدتي أيضا وبذلك نتدبر حجرة لك وللطفلين. فقط قرري وانزعي مخاوفك عن قلبك.

- سيقتلني أخوتي يا آنسة سماح.

- لن يفعلوا أبدا؛ هم أضعف من ذلك. سيقتلون روحك فقط أن بقيتِ معهم.

***

عندما عادت زينب إلى الفندق قررت أن تأخذ وقتها في التفكير حتى لا تندم.

قرار كهذا سيغير مجرى حياتها أكثر من قرارها حين رفضت التخلي عن زوجها المعتقل وبقيت في صنعاء رغما عن إرادة أهلها.

كانت تعرف أن في قرارها الأول أخذاً ورداً حين يعود زوجها؛ لكن قرارها هذا يعني أن تتبرأ منها أسرتها وتنكر عصيانها وتمردها وقد

يتهجم أخوها عليها وتعود مرغمة مع معاملة وحشية.

لذا تأنت حتى آخر أيام بقائهما في مأرب؛ كان أخوها طوال الوقت مغضبا ومحبطا يلعن كل شيء في طريقه؛ أخبرها عن صعوبة استخراج جواز سفر وأن الأمر سيكلفه الكثير وقد يعود بلا جواز؛ يظل يشتم طوال الوقت قائلاً:

- هؤلاء المرتزقة يظنون أنفسهم حكومة شرعية وهم عاجزين عن توفير جوازات للناس؟

فترد مرغمة:

- لماذا لم توفرها دولتكم إذاً؟

فيرد وقد اشتعل غضبه أكثر:

- هم قادرون على ذلك لكن العالم الحقير يتواطأ ضدنا ويرفضها؛ لكننا سننتصر على أمريكا وإسرائيل ودول التحالف؛ السيد قال ذلك وهو ابن رسول الله. سنظل نقاتل كل هؤلاء حتى قيام الساعة.

كان يهذر طوال الوقت بأقوال ملازم سيده كأنه يدافع بها عن نفسه حرزا من عدوى الحرية والكرامة السائد في مأرب.

وكان من الصعب مواجهته بقرارها وهو يفتعل المشاكل والصراخ طوال الوقت؛ فضلت أن تكتب له ورقة تقول له فيها إنها لن تعود معه وأنها ستبقى في مأرب كي يتلقى أولادها تعليما جمهوريا ليس فيه خزعبلات ملازم سيدهم.

ستربي أولادها بعيدا عن العبودية التي يريدون فرضها عليهم؛ سيكبرون وهم يعرفون كيف قُتل والدهم ومن كان السبب في مقتله بتلك الوحشية.

ستنجو بهم من مناطق الانقلاب ففي هذه المناطق تكمن حرب لا هوادة فيها.

خلال سنوات الحرب تُرتكب الجريمة الكاملة في حق هذا الجيل من تجريف للعقول وإلغاء للهوية ووأد لحرية القول والفكر.

إن تأثير جرائم الفكر وتجريف العقول أشد فتكا من حروب الإبادة الجسدية فالضحية هنا هو المستقبل والحاضر لشعب بأكمله.

في منأى عما يدور خارج اليمن من مفاوضات وأكاذيب سياسية واستغلالا لحالة الفقر، تدأب حكومة الانقلاب على فرض حاضنة شعبية فكرية لوجودها غير المشروع.

في صبر مشهود تتدرج خطواتها لغرس فكرها حول الولاية والحق الإلهي وتقديس رموز من قش في عقول الأجيال المتعطشة لوجود الرمز البطل.

إنها تعمل بصمت ودون ضجيج تحت لافتات براقة من الاهتمام بعقول أبناء هذا الشعب.

تنشئ المراكز الصيفية وتفتتح الدورات وتقيم المحاضرات وتصل إلى أدنى المناطق وعيا وتغرس بذرتها الخبيثة لتجييش البسطاء باستنهاض فكرة التضحية من أجل الوطن.

شماعة العدوان.. كانت وما زالت أجمل النعم التي فتحت أبواب الرخاء والثبات للحوثيين؛ لن نقول أن الحرب هدية السماء فالسماء لا تساند الظلم ولكنها هدية النظام الدولي لتنظيم يخدمها.

لولا هذا العدوان الذي ضاعف مأساة اليمنيين وصرف أذهانهم عن عدوان داخلي أشد قبحا لعدوان خارجي أشد غباء لاختلف الوضع منذ زمن طويل.

الآن تقوم دول رعاة الحرب بإتاحة الفرصة الزمنية لهذه الجماعة كي توطّن لفكر جديد وثقافة مجتمعية جديدة.

كل هذه المظاهر التي نسخر منها؛ من ترديد الصرخة في المساجد والمدارس وإقامة الاحتفالات الطائفية الدخيلة علينا والتدرج في تغيير المناهج المدرسية وتقديس ملازم الحوثي.

وفرض القداسة لشخوص على أنهم مناضلون من أجل الشعب ويحملون فكر هذه الجماعة.

إنهم ينشطون كأزيز الذباب عبر الإذاعات المحلية؛ في الجوامع والشوارع حيثما تصرف نظرك تجد لافتاتهم وخرافات شعاراتهم الزائفة.

يفرضون ملازمهم على طلاب الجامعات ليدرّسها الدكاترة وعلى التلاميذ في مراكزهم الصيفية يحاصرون العقل اليمني في كل أتجاه فكيف لا يثمر هذا الضخ المركز لذات الفكرة؟

كل هذه المظاهر وغيرها كثيرة جدا تستوطن بمرور الوقت ذهنية اليمني كحقائق وما أسهل تزييف حقائق التاريخ.

إن مستقبل أبنائنا في خطر وهم الفئة المتلقية النقية التي يُحفر فيها التلقين منذ الصغر وهذا ما تركز عليه هذه الجماعة العنصرية بدقة أكبر.

نحن أمام حرب فكرية أشد شراسة وقبحا لتجريف الهوية اليمنية والعقيدة الصحيحة دون أن يكون هناك حواجز صد من تربية وطنية كانت وما زالت هزيلة.

ستنجو بأولادها من كل هذا..

لم تنسَ أن تذيِّل رسالتها بملاحظة رادعة عن أنها ستلجأ للشرطة هنا أو حتى الجيش الوطني لحمايتها؛ كانت تعلم أن هذا سيثير خوف أخيها فيرحل دون أن يبحث عنها.

غادرت الفندق تحمل كل مخاوف امرأة وحيدة تواجه المجهـــول بطفلين وحزن كبير.

***

(8)

وافقت على الزواج به..

نعم وافقت سماح على الارتباط بحافظ؛ وفي حفل متواضع تمت خطبتهما والاتفاق على كل تفاصيل الزواج الذي تؤجله كلما حان موعده.

هي لا تدري لماذا وافقت؟ ولا تدري حتى متى تؤجله؟!

لكنها تشفق على حافظ من لهفته وتفانيه؛ وتكره مراوغتها في ابتداع أسباب التأجيل.

عمار ماثل بينهما ذكريات لا تُنسى؛ حتى كلمات التودّد التي يلقيها حافظ على مسامعها تفكر لماذا لم يكن عمار يقولها؟

رسائل اللهفة والشوق التي تزدحم في هاتفها عبر الواتس والماسنجر لماذا لم يكن يكتبها عمار؟!! متى تنسى عمار يا تُرى؟!

- مرحبا يا حافظ..

اغتصبت سماح ابتسامة وهي تطالع وجه حافظ متهللاً كأنما نال مكافأة لفوره لمجرد مجيئه إلى المنظمة ومقابلتها.

أصبح يختلق عشرات الأسباب للمجيء إلى المنظمة فقط لرؤيتها ما دامت ترفض رؤيته في أي مكان آخر.

جلس قبالتها على المقعد الخشبـــي المقابل لمكتبها وهو يتشـــبث بمسندي المقعد بكلتا يديه وينحني مبتسما في حرج:

- مررت لتحيتك؛ أتيت لأخذ بعض المعلومـــات الجديـــدة؛ وابتسم بحرج ممزوج بفرحة غامرة.

فكرة التشبث بمسندي المقعد درسها جيدا كـــي لا تلاحـــظ ارتجاف أصابعه وهو يحدثها؛ شاهدها في برنامج تلفزيـــوني كحيلـــة مناسبة للتظاهر بالثبات. كم سيبدو أحمق لو لاحظت ذلك.

يكفي أنها لاحظت اختلاقه أسبابا تافهة للمجيء.

- ما أجملك.. كل يوم تزدادين بهاء. وابتسم برضا، لقد بذل جهدا كي يكسر جدار الرسمية في تعاملها ويجب أن يستمر حتى يلين قلبها.

بادلته الابتسام وقد نقل إليها عدوى الحرج؛ لم تكن لتهتم بكل كلمات الغزل أو الثناء التي تتساقط في طريقها كفتاة تعد متحررة في مفهوم البيئة القبلية.

كثيرا ما أشعرها الإطراء بالغثيان؛ لم تكن تتمناه من أي رجـــل سوى "عمار"

همست بتلقائية: شكرا يا عمار.

صدمتها نظرة الهلع والحزن في عيني حافظ؛ لم تنتبه أنها للتـــو ألقت في حجره قنبلة فكت ذراعيه عن مسند المقعـــد في ارتخـــاء اليائس.

رد عليها بصوت كانفجار مكتوم:

- رحمة الله تغشاه.. واستدرك وهو ينهض منصرفا: وتغشاني أنا أيضا يا سماح.

ظلت برهة صامتة بعد انصرافه؛ أدركت حجم الألم الذي سببته لحافظ؛ لقد كان عمار يجرعها الكثير منه..

تبا لك يا عمار.. تبا لك هناك في قبرك وحدك أو في جنتك مع عشرات الحوريات الغبيات مثلك.

كنت تتهرب من سماح التي عشقتك بشعرها المكشوف ويساريتها التي تناقض عقلك؛ وتمعن في إهمالها لأنها فقط عشقتك كلك كيفما كنت..

فضلت أنت تموت على أن تكون معي وكم حاولت أن أموت كي أكون معك.

تظن أني لم أكن أعلم بسخريتك من عاطفتي المتهورة نحوك؛ كنت أراها شفقة في عيني "وحيد" وأنا أبحث عنك وألجأ إليه في السؤال عن مكانك.

يحق لك أن تسخر في قبرك أيضا.. فأنا ما زلت أحبك وكم يؤلمني حين أدعو "حافظ" باسمك وألمح الوجع في عينيه بسببك.

ما ذنب حافظ يا سماح؟ حسنا؛ ذنبه أنه أصر على المحاولة والارتباط رغم معرفته أن الذكريات تسكنني.

القلوب التي عاث فيها الحب دمارا وتصدعت ألما لا يمكن أن يسكنها أحد، إنها كبيت خراب كلما فكرت بالتوغل في أطلاله تساقطت الحجارة على رأسك..

وما ذنبك أنت يا سماح؟

حتى متى تحرمين نفسك الحب وسعادة الحب لذكرى رجل لو كان حيا أنه قد نساك ونسى ذكراك؟

لقد صرت جذع شجرة جرداء في حياتك القاحلة؛ حُفرت عليها ذكريات قلب مخبول هو قلبك.

أنت أنثى يا سماح قبل أن تكوني امرأة قوية؛ أنثى تحتاج إلى رجل يضمها إليه حين تتشتت ويواسيها حين تحزن ويدللها حين تشعر بالوحدة..

انظري إلى نفسك كم كبرت وضمر جسدك وكادت تبهت ألوانك وتذوي روحك؛ انظري إلى عينيك كيف انطفأ فيهما دلال الأنثى؛ انظري إلى شفتيك كم هما بحاجة الى قبلة حب؟

قطعت خلوتها زينب وهي تطرق الباب وتدلف الى الداخل دون انتظار كانت صداقتهما قد توطدت كثيرا؛ وكانتا ملجأ شكوى لبعضهما.

حدقت سماح إلى زينب مطولا. إنهما في ذات العمر تقريبا لكن زينب لديها طفلان يناديانها أمي؛ تشعر أنهما كل الحب الذي تحتاجه في حياتها؛ خبرت الحياة والحب والزواج والأمومة وكل شيء؛ لكن هي؛ كل خبرتها قصة حب مزلزلة وفاشلة مع عمار..

والآن تقود حافظ إلى الهروب منها لشدة إهمالها له كما قادت عمار إلى الهروب منها لشدة تعلقها به..

سالت زينب ما أن استقرت جلوسا على المقعد الخشبي قبالتها رافعة النقاب عن وجهها المتعرق بسبب الحر في مأرب:

- زينب هل تعتقدين أن المرأة يمكنها أن تحيا دون رجل؟ أن تحب نفسها وكل ذلك الكلام المشجع؟

ضمت زينب شفتيها بضيق وهي تقول:

- قد عرفت أنك ارتكبت جرماً ما بحق هذا الرجل المسكين؛ لقد خرج زائغ النظرات لا يرى شيئاً أمامه وكاد أن يصطدم بي.

ما بك يا سماح كل نساء الأرض يتمنّين رجلاً عاشقاً هكذا؟ يتقبلك بماضيك، وبكل نقصك، بكل هذا الحب؛ ستندمين لما تفعلينه به.

زوت سماح حاجبيها بغيظ وهي تتجاوز كل ما قيل لتقول عاتبة:

- يتقبلني بماذا؟ ومن هذا الذي ليس فيه نقص بشري؟ ثم ما بك أنت يا زينب لا تضعي من قدر نفسك أو المرأة عموما.

وختمت كلامها بضرب الملف في يدها على المكتب بعنف.

- كون أنك كنت حبيبة صديقة، هذا ماضٍ مشين جدا في بيئتنا وحياتنا؛ لماذا تنكرين؟ كونك امرأة بعقلية منفتحة لا يعني أن المجتمع سيتجاوب مع انفتاحك هذا ويعاملك بالمثل؛ وهذا ليس موضوعنا؛ نحن نتحدث عن هذا الحب الذي تواجهينه بكل الإهمال وليس الدلال.
- وما الفرق؟ ربما يراه دلالا.
- هل تظنينه أحمق؟ أي رجل يعرف كيف يميز بين الدلال والإهمال؛ رجاء لا تبرري لنفسك يا سماح أنت تخطئين في حقه وكفى.
- أعرف ولا حيلة لي في هذا أيضا؛ أشعر بالحزن عليه وعلى نفسي؛ أفكر ألا أعذبه أكثر وأن انهي هذا الارتباط؛ ولا أدري هل أستطيع فعلا الحياة دون رجل إلى الأبد؟

ابتسمت زينب بشفقة وهي تربت على يدها الموضوعة على المكتب كأنها تستجدي إجابة:

- لا تستطيعين يا سماح أبدا؛ سيظل ينقصك شيء حتى لو توفر لك كل شيء؛ إنها هذه الفطرة في الإنسان أن يحتاج إلى رفيق لروحه أو مكمل روحي له.

قد تكتفين ماليا؛ أو تستغنين عن وجود الرجل في جوانب كثيرة؛ لكن تظل حاجتك إلى حبه وحنانه فطرة أنثوية لا حيلة لك فيها.

انظري إليّ يا سماح ربما استقر وضعي معيشيا فأنا أعمل وأعيل نفسي؛ ربما لدي ولديّ يملآن قلبي حبا وسعادة؛ لكنني حين أخلو إلى نفسي أفتقد ذلك الحضن الذي كنت آوي إليه كجبل يعصمني من التعب والوحشة.

فكري كثيرا في حاجتك إليه أكثر من حاجته إليك كعاشق يحبك؛ من المؤكد أنك ستحبينه يا سماح. أخشى أن يأتي هذا اليوم وقد ملّ قلبه وانصرف عنك.

***

إذا بلغ الألم النصاب هل يهرول ناقصا..؟

ككل شيء إذا ما تم نقصان.

(9)

بقاؤه على سرير المستشفى لا يعني إلا مزيدا من الوجع؛ إنما إلى أين يذهب بساق تتآكل؟!

مشاهدة السواد والتعفن يغزو لحم ساقه كل يوم على أمـــل أن ينقذها من القطع؛ لكنه أمل يضمحل كل يوم.

ليته فقدها مباشرة أثناء المواجهات خيرا من أن يخالجه الأمل في بقائها.

لقد أخبروه عن جهود "حمود المخلافي" من أجل إنقاذ جرحـــى تعز وأن هناك فاعل خير سيتكفل بعلاجهم.

فاعل خير يتكفل بعلاج الجرحى!!

الجرحى الذين تساقطت أجزاء من أجسادهم على ثرى وطن لا يملكون الحق في ترميم هذه الأجساد على نفقته.

لا بأس أيها الوطن فأنت أيضا تتسول مثلنا على قارعة الـــدول؛ بعد أن عراك اللصوص من كرامتك كسيادة مستقلة؛ بعد أن صادروا خيراتك وحقوقنا كبيعة متكاملة.

لقد انتقل إلى مأرب على أمل العلاج في المملكة وها هو يتآكل وجعاً وإهمالاً.

عندما أصيبت ساقه لأول مرة في إحدى المواجهات كانت يده

مازالت هنا بالقرب تساعد أختها في رفع هذا الساق الثقيلة.

الآن بعد بتر ذراعه اليسرى صارت اليمني وحدها لا تنفع إلا لشد شعره كلما اشتدت وطأة الألم على ساقه.

حين أصر على العودة للقتال من أجل تعز بساق تعرج؛ كان حينها يرى تعز كلها سندا له؛ قلعة القاهرة توازن خطواته ويتكئ عليها في ضعفه؛ كل تعز كانت كتفا واحدة تصد المليشيا وتسند بعضها.

تعز الآن عرجاء أكثر منه تحتاج إلى من يقودها في عماها هذا؛ ويقطع أقدام تلعب بها ككرة.

إصابته الثانية اطاحت بذراعه تماما أما ساقه العرجاء فمهددة بالبتر وهذا ما يؤلم روحه أكثر من جسده.

تذكر رفيقه صاحب الشعر الأشعث حين قذفه اللغم أمتارا وظل حياً رغم اقتلاع اللغم لساقيه وسلاحه من بين يديه.

فكان يصرخ تحت وطأة صدمة الموت: هاتوا سلاحي.. هاتوا سلاحي..

جثى قربه وهو يقول: أنت مصاب.. اهدأ قليلا سنسعفك.

فناشده قبل أن يفقد الوعي: اجهز علي يا رفيق.. بحق الله اجهز علي؛ ما الحياة أن عشت عاجزا في وطن عاجز.

لحسن حظه أنه نزف حتى فارق الحياة دون أن يعايش هذا الموت البطيء الذي يعانيه الجرحى على أسرة المستشفى وفي منازلهم.

كان ليطلق الرصاص على ما تبقى من جسده حين يشعر بالعار وهو يقف متظاهرا يحمل لافتة كتب عليها (انقذونا أجسادنا تتعفن)

يقف ذليلاً أمام أبواب الشرعية تنديدا بالإهمال الـــذي يلاقيـــه نصفه الأعلى ممن لا يستحق أن يكون النصف الأسفل لأي مقاتـــل ضحى في سبيل الوطن.

لكن الأجساد التي تتعفن في انتظار العلاج عادة تكون بســـبب الضمائر المتعفنة للكثيرين.

وكما يقال "الغريق يتعلق بقشة"

أصبح الجريح يتعلق بقشة الإحسان فقد ضاعت الحقوق في هذا الوطن لتحل محلها الصدقات.

الشعب كله يعيش على إحسان ومعونات المنظمات؛ والجرحى يعالجون على إحسان فاعلي الخير.

طرقات أعقبها فتح الباب جعل أفكاره السوداء تنزوي جانبا في رأسه؛ حين تقدمت زينب إلى سريره وراحت تتفقد جراحـــه برقـــة وعطف.

حزنها يشف خلف نقابها؛ كمـــا تشـــف رقتـــها وحنانهـــا في تعاملها مع الجرحى دون أن تشمئز من قيح جـــراحهم وهـــي تنظفها.

قال لها باستفزاز:

- اشتهرت نساء ذمار بقسوتهن وشدتهن، هل هذا صحيح؟
- ابتسمت خلف النقاب وهي ترفع اللوحة المعلقة على سريره لتعرف اسمه قائلة:
- تماما كما اشتهر رجال تعز بالفضول والثرثرة يا شوقي.

ضحك بصعوبة وهو يقول لها معتذرا:

- معذرة منك أيتها الممرضة زينب؛ أعذريني، جراحي تجعلني

نزقاً فعلا؛ ورقتك وحنوك في تعاملك مع الجرحى مؤثران كثيراً.

اطرقت زينب وهي تقول له بغصة تهدج لها صوتها:

- كلنا جرحى أيها المجند وجراحنا غائرة تتفتت لها أوصالنا؛ وأجزاء من أرواحنا قد بترت؛ لقد قتلوا زوجي أبا أولادي وكأنهم بتروا أطرافي ونصف روحي.

همس شوقي متأثرا:

- ليكن الله في عونك يا أم الرجال؛ حقا جراح الروح لا يعادلها أي ألم.

***

بشعور من الذنب كانت زينب تفكر أنها تستمد شجاعتها وشفاءها من منظر الجرحى وقصصهم.

رؤية من هم أسوا حالا منك يخفف مصيبتك حقا، لكن الحديث مع الجريح التعزي يثير عجبها. هذا الرجل رغم فقدانه ذراعه وذهاب شبابه مع الألم يجد طريقه إلى السخرية والتندر من كل شيء حوله.

يحسن كثيرا انتزاع ضحكة مجلجلة تمزق جراحاته وتنثر قيحه.

لا يستحق شباب كهؤلاء الموت؛ لا يستحق أطفال الوطن وشبابه أن يُقتلوا ليعيش عجائز السياسة أعمار هؤلاء فوق أعمارهم.

تشكر الله كثيرا في صلواتها أنها مازالت في كامل صحتها وطفلاها معها؛ هناك من يفقد كل شيء دفعة واحدة في هذه الحرب.

الحياة حين تعطي فهي تأخذ أيضا لكنها ليست عادلة!! ماذا لو خيرتنا بين ما تعطي وتأخذ؟!

لكانت اختارت أن يبقى زوجها ولو جريحا مقعدا بذراع واحدة أو حتى ساق واحدة.

لكنه قُتل؛ وبالكاد تعرفت على جثمانه؛ ومع هذا فالحياة تستمر.

إنها نهر لن يتوقف لاختفاء أحد أو سقوط أحد؛ أو موت أحد؛ نهر سيجرف حتى الواقفين انتظارا لطوق نجاة..

سيغرق من أصر أن يتحمل أثقال الحزن والهموم؛ ويطفو على السطح خفيف الشعور.

***

لأيام طويلة وهو يراقب زينب تقوم بعملها بتمعن وتركيز يثير ارتباكها؛ يشتد ألمه إن غابت عن تفقد جراحه؛ يطيل الحديث معها حول جرحه وحياتها؛ ويطالب برؤية صورة لصغيريها فتريه الصور كأنها تستعرض كنوزها الثمينة بفخر واعتزاز.

إذا تغافلت عن المرور عليه يوما على أن ينوب عنها غيرها، يقابلها اليوم التالي بسيل من النكات المستفزة عن بلدها ذمار كأنه يعاقبها على ذلك الغياب دون أن يشعر.

فتقابل نكاته الساخرة بنظرة هادئة تطل من وجهها المنقب؛ كأنها تعذر جراحه وتغفل اشتياقه لمرورها.

أحيانا لا يخالجه شك أنها تراه كأي جريح في مشفى يكتظ بأمثاله؛ وأحيانا يرى في عينيها ظلال إعجاب وسعادة بحديثه؛ يشعر

بحرصها على متابعة حالته بنفسها؛ وتمر لرؤيته حتى لو تكفل بهذا غيرها.

لكنه لم يعد يثق كيف يشعر حيالها؛ وهل يحق له هذا الشعور وهو المعوق بأكثر من إصابة.

لقد خسر ذراعه فلم يبالِ كثيرا؛ لكن حياته كلها معلقة بهذا الجلد المتعفن لساقه الجريحة؛ ماذا لو تقرر بترها فعلا؟!!

إنه الصلب على جدار التضحية إلى الأبد؛ لن يمارس حياته بنصف جسد؛ ولن تقبل به أي امرأة يريدها.

حتى عندما ظهر اسمه في كشف الجرحى الذين سيتمكنون من السفر لمتابعة العلاج في الهند كانت فرحته مهشمة بالخوف مرتين أن يعود بلا ساق؛ وأن يُمحى من خاطر زينب.

صباح سفر الجرحى عجز أن يتفوه بحرف أمامها؛ لكنه كتب لها ورقة صغيرة دسها بين يديها وهو يدعو الله أن لا تفتحها إلا وقد غادر.

(عزيزتي زينب: إذا عدت سيرا على قدمي سأتقدم للزواج منك وأتمنى أن يكون لي حظا بقبولك لي؛ وإذا عدت بلا ساق بالإضافة أني بلا ذراع فلن أقبل على نفسي أن أرمي حملي وثقلي عليك وأزيدك تعبا فوق تعب الحياة ولن تريني مرة ثانية حينها. أرجوك ادعي الله أن نلتقي).

(10)

لمحته في أحد شوارع القاهرة..

إنه وحيد؛ مازال الوقت فجرا لكن الظلام الذي يكابد الانزياح لم يحرمها رؤية ملامحه بوضوح؛ ليست النظارة من تحرمها رؤية عينيه فقط؛ هذه المسافة الشاسعة بينهما أيضا؛ و لم يكن ينظر نحوهـــا ولا يبدو أنها وجهته أيضا.

يخالجها يقين أنه لم يأتِ من أجلها أبداً..

لكنه هنا.. على مقربة من النبض الذي جن اشتياقا؛ هنا يتنفس معها ذات الهواء الخانق حرارة؛ نظراته تصطدم بذات المباني الضخمة كالحة المنظر..

هنا في القاهرة هكذا فجأة دون توقع، أو أن يخبرها بقدومه.

تراه من بعيد ولا تفهم لماذا لا تذهب إليه ولا لماذا لا يـــأتي إليها؛ تناديه فيتشاغل عنها بأناس حوله؛ يضيع صـــوتها في زحـــام الضجيج..

هذا الضجيج الذي يفقدها السمع قادم من جانبها الأيسر؛ هذا القلب ينبض بصخب مؤلم..

وحيد.. متى تأتي إليّ.. ولا يسمعها..

وحيد افتقدتك وأنت هنا.. ولا تحدثني؟!!

يدير لها ظهره راحلا؛ كالعادة لم تصل نـــداءاتها مســـامعه ولا كلف نفسه أن يستدير نحوها.

كأنها تقف على جسر قصر النيل تنظر إليه في ضفة أخـــرى لم تدرِ أين؟

- أنا أقف على جسر من تلك الجسور التي تربط بين الأماكن البعيدة؛ فأي جسر يمكنه أن يصلني بك لتعبر منه الكلمات دون خوف من أن تدهس كراميّ فيه بنـــاقلات رحيلـــك وإهمالك..

آه ما أجمل الأضواء التي تنعكس على وجـــه النيـــل؛ تـــتلألأ كعشرات الغمازات المبتسمة؛ يصبح النيل كله قلباً يخفق بانســـياب معشوق؛ هادئا لا يشبه هذا الزلزال الذي ضرب قلبـــي.

كنت سأبدو مثل النيل لو كنت جسرا أو زورقا لكنك بعيـــد ككوكب يحدث في أعماقي مدا وجزر.

وحيد.. أفكر أحيانا بالغرق الذي يريح؛ أنا غارقة فعلا وأختنق على قيد الحياة..

أريد غرقا مميتا ينهي هذا الاختناق فحسب.. فلم يعـــد هنـــاك شيء يثير دهشة القلب.

لا شيء ولا أحد يمكن أن تعيد إليه النظر مرتين.. لا شيء يعلق في ذاكرة القلب.

كنت وحدك من علق في الروح كمضغة نمت وكبرت حـــتى التهمت هذه الروح وصارت جزءاً منك.

وأنا أراك تدير ظهرك راحلاً وقلبـــي يحترق كغابة من الأحلام اليابسة لم يزرها المطر إلا دموع وداع أشعلتها حتى الجذور.

ماذا لو تدليت من هذا الجسر وانطفأت في ماء النيـــل.. هـــل ينطفئ هذا الوجع الذي يحرقني؟

لماذا أحبك كل هذا الحب وأنت قاسٍ كل هذه القسوة؟ لماذا لم يقع قلبـــي على قلب لين مثله؟ كيف لمن تكتب الشعر أن تعشـــق رجلاً يمتهن السياسة؟

استيقظت عفراء وهي غارقة فعلا في العرق الذي بلـــل ثيـــاب نومها وبدت بقعة واضحة على مخدتها، تأملتها لا تدري هل هي أثر الدموع أم العرق الذي تصبب من جسدها كله..

يا لهذا الحر الذي يجول في القاهرة وكأن جهنم تسير في أزقـــة بيوتها.

لقد كان مجيء وحيد إلى القاهرة مجرد حلم آخر يضاف لكـــل أحلامها المتعلقة به؛ هذا الرجل الذي صنعته من الخيال والأحلام.

آه يا وحيد، لم أكن أجد سببا وجيها كي أكره القاهرة بصخبها وزحامها؛ لكنك أوجدت لي هذا السبب وما أشد وجاهتـــه! فهـــي المدينة التي جمعتنا وحرمتنا اللقاء ولو في رؤيا حلم.

***

إنها مريضة فعلا كما تقول والدتها؛ روحها المعتلة أعلّت جسدها أيضا.

لكنها تكتب؛ تكتب بنهم أنهكها؛ تكتب لتشـــفى؛ لتخـــرج وجعها نزفا حتى آخر نفس؛ حتى آخر دمعة وزفرة وآخر شهقة.

تكتب لأن الكتابة عالم خاص يجعلك محصنا ضد واقع ترفضـــه ووهم يرفضك..

كآبتها ملأت خيالها وما بين عينيها حتى فاضت على كل شيء حولها.

لا فرق بين جدران لونها سوسني هادئ تنتهي بزخارف متناسقة، وبين جدران باهتة اللون مائلة إلى الصفرة تنتهي بسقف أبيض كملاية سرير في مستشفى خاص.

لا فرق بين جدران الطوب الأحمر الصغير وجدران حجارة البازلت الموقصة بدقة. كل الجدران تتشابه حول روح منغلقة بلا نافذة تهوية.

كل الجدران مجرد إسناد لجدران الروح القاتمة والمصمتة.

لن يخترق روحاً معتلّة خيطُ ضوءٍ لشمس ماتت في كبد السماء من فرط الجدران والبرد..

نوافذ الأمل مغلقة.. عشرات المسامير ثقبت القلب وأغلقته بطريقة محكمة.

لا هواء نقي يأتي به الزقاق المكتظ بالكذبات البريئة..

لا دفء في الجدران أو الذكريات أو الأحلام المسربة في النوم رغم الاحتياطات المبكرة.

أنام مفتوحة العينين بانتظار الصباح، ربما يأتي بصوتك من خلف كل الجدران النائمة فوق صدري المسحوق يأسا.

آه كم أود أن أسير حيث تغرب الشمس كل يوم ولا تعود..

كم أود المضي في كل طريق يؤدي إلى وطن جميل خال من الجدران والحروب.

لا أحد مهتم بتوفير إجابات مقنعة لقلب دائم السؤال: حتى متى نظل هكذا؟

دائرة الذين أحتملهم تضيق؛ هذا ليس حصاد التقدم في العمر أو كثافة الشعور بالاغتراب هنا.

بل نتيجة طبيعية لمخالطة البشر وفهمهم أكثر.

شعور بالامتلاء حد الفراغ من الصبر؛ من أحاديث الصديقات؛ من ثقل التبلد الذي أشعر به؛ من رأسي ذلك الآخر الذي أحمله.

حتى أني أحيانا أشعر نفسي خارج دائرة احتمالي وأن صخب روحي لا يُطاق.

إنها حالة متقدمة من النفور من كل البشر.

يبدأ نفور وعزلة ثم يتحور إلى كراهية مسببة؛ أخيرا أجد نفسي أكره كل شيء بلا سبب.

كم أخاف من شراسة الكراهية يا وحيد.. إنها تحرق قلبي الأخضر.

نهارا أغالب نفسي كي أكون طبيعية حيال كل شيء؛ وفي المساء أفرز قائمة ثاراتي وأصنف كراهيتي لقباحات هذا العالم.

حتى أنت أحيانا أكرهك..

هل يجتمع الحب والكراهية؟!!

نعم؛ بينهما خيط رفيع حاد كالألم؛ اسمه اللامبالاة؛ يتمزق فيختلط الحب كرهاً.

كم هو موجع للقلب أن تكره أملك في الحياة؛ نافذتك للفرح؛ الضوء الذي تسلل إلى حياتك القاتمة.

هذه النافذة التي فتحتها بجوارحي وقلبي للسعادة؛ لا يأتي منها سوى ألم الشوق والحسرة.

لم أكن أعرف أني سأكون من أولئك الذين يقفون متفـــرجين على الحياة وهي تنتقي غيرهم للسعادة وتخلفهم للشقاء؛ كنت أظنني سأقاوم حتى النهاية.

إنها النهاية.. و لم أغير قناعتي: إما أن تنتزع حياتك كاملة أو مت دونها.

موت مكتمل خير من نصف حياة.

***

- حتىٰ وأنت معي تغيبين في التفكير؟
- حتىٰ وأنا معك.. أفكر بك.

(11)

في اليوم التالي لعودة وحيد إلى مأرب ذهب إلى مكتبه المتواضع حيث يجتمع مع رفاقه الصحفيين والإعلاميين؛ كان قد غير شقة المكتب للمرة الثانية إلى أخرى أصغر مساحة بعد أن عجز عن دفع مستحقات السابقة.

الغلاء الفاحش يتفاقم على كل مستويات المعيشة ووصول عملة البلاد إلى الحضيض جعل الحياة صعبة على الجميع ومستحيلة على الكثير..

مأرب أصبحت غاصة بالنازحين أكثر من ذي قبل فبعد أحداث الحديدة وحجور، ونشوب مواجهات في مناطق مختلفة، تضاعف النزوح بالآلاف و لم يكن هناك كمأرب مأوى للجميع.

الكثير كانوا يقطنون الخيام في بؤس لا يصدق ويعتاشون من خدمات المنظمات الإغاثية

أصبحت إيجارات المباني مهولة رغم نهضة العمران المتسارع لتلبية الطلب.

في أوائل مارس لعام 2019 اقتحم الحوثيون منطقة حجور بعد مناوشات بينهم وبين قبائل المنطقة الرافضة لبسط سيطرتهم؛ أسفر الاقتحام عن جرائم إنسانية مروعة والقيام بتصفيات جسدية ضد

المقاومين وحرق عشرات المنازل والمزارع وقتل عدد من الأهالي بينهم نساء وأطفال.

كان لسقوط حجور أثر يدمي قلب كل جمهوري؛ فقد كانت آخر معقل للصمود بعد توقف القتال في الحديدة وتسليمها للأمم المتحدة التي بدورها أسلمتها للحوثيين.

مأساة سقوط حجور ما أشبهها بيوم سقوط صنعاء؛ ذات الوجع والصدمة رغم توقعنا السقوط بسبب الخذلان والخيانة..

قلوبنا كانت معلقة بهذا الأمل أن تنتصر إرادة اليمنيين رغم شحة المساندة والعتاد..

لكن حجور سقطت؛ سقطت فعلا فقد دخلها الحوثيين كما دخل المغول بغداد؛ فجروا منازل الأهالي وأحرقوا كل أخضر..

عشرات المنازل سُوّيت بالأرض وعشرات الجبال من الرجال قتلوا كمحرقة لمعركة غير متكافئة.

وحيد تتناوشه الذكريات كلما خلا إلى نفسه؛ يفكر أن هذا القلب لم يعد يتحمل وجع الداخل والخارج.. أخرج الهاتف من جيب سترته واتصل بحافظ يدعوه إلى المجيء مبكرا.

وافته ضحكة حافظ قائلا:

- ظننتك ما زلت ضيفا على سميرة والأولاد فلم أجرؤ على مهاتفتك.

فرد وحيد ضاحكا:

- ضيافة الرجل في بيته ثلاث ساعات إذا غاب شهرين فقط؛ تعجل بالمجيء فأنا أنتظرك.

حين وصل حافظ كان وحيد قد أعد الشاي فقد غادر منزله عقب الغداء دون أن يتناوله؛ وكعادته وحرارة شمس مأرب تذيب الصخر فكر بكوب شاي عوضا عن الماء البارد.

تعانقا بحرارة وجلسا يحتسيان الشاي وحافظ يسأله عن تعز وتفاصيل رحلته إليها.

كان وحيد يقص على حافظ ألمه وعجز عن التكفل بأبناء رفيقه أحمد النويرة ونقلهم إلى مدينة تعز أو مأرب مع والدهم فهم يسكنون أحدى ضواحي تعز البعيدة.

زفر في النهاية قائلا:

- أتذكر أني كنت لا أهتم بالجانب المالي في حياتي أبدا؛ أحيانا يخلو البيت من فلس واحد ولا أهتم؛ الآن أصبح القلق يتآكلنا خشية الحاجة والمهانة.

حدق حافظ إلى وحيد مطولا قبل أن يقول:

- هل تتذكر صديقنا صفوان الكامل؟ الرجل حصل على منصب رفيع في الحكومة؟!! تخيل فقط فوضى التعيينات وتوزيع المناصب إلى أين وصلت؟ كأنما يتقاسمون أطواق نجاة محدودة لسفينة تغرق؛ عليك أن تفكر أنت أيضا في البحث عن منصب يليق بك؛ الأمر لن يكون صعبا بالنسبة لك؛ هذا هو الحل لتخرج من ضوائقك المالية.

أطلق وحيد ضحكة مقتضبة وقد أحس بعدم قناعة صديقه بهذا الحل:

- الأمر ليس غريبا على صفوان في أن يجد له موطئ قدم في هذا الفساد، فهو وأمثاله يترعرعون في أجواء كهذه؛

يجدون الناس ينحدرون نحو المجاعة والفقر فيما هم يعيشون برفاهية فاضحة ويعتبرون أن هذا عن استحقاق لهم. هم لا يخجلون أمام أنفسهم لذا لا يخجلون أمام الناس وحاجتهم وفقرهم.

أنا لم أخلق كي أكون من رجال السياسة في حكومة أو حزب؛ أولئك الذين يتبادلون ابتسامات صفراء بغيضة ويسيل اللطفُ من كلماتهم كسائل مخاطي لزج..

كل هذه النخب الحزبية والسياسية تلاحقها لعنة هذا الشعب المقهور.

يرون أوطانهم تذبح من الوريد إلى الوريد في اتفاقات وضيعة لا تقيم لمعاناة الشعوب وزنا لكنهم لا يملكون حتى رفاهية الرفض.

عاجزون عن الصراخ غضبا مثلنا؛ تحتم عليهم اللحظة التظاهر بأنها المصلحة العامة من توجب الخيانة؛ لا يحسنون شيئا كالتظاهر بالصدق.

أنا ولدت بين هؤلاء الناس الذين ينزفون ألما؛ وتختلط دموعهم بدمائهم؛ وسأعيش بينهم كي أمسح هذه الدموع فإن لم أستطع سأبكي معهم..

لن أحمل وجهين أبدا؛ أحدهم يبتسم بلطف لزج والآخر يبتلع غصة العجزعن الرفض.

لن أكون صوتا لنفسي؛ فأنا من الناس وخلقت لأكون صوتا للمقهورين ولن أكون مسؤولا كاتما لأصواتهم.

زفر حافظ بحسرة وهو يسأل ذلك السؤال الذي يشغل قلوب اليمنيين كلهم:

- هل ستنتهي الحرب؟ وكيف ستنتهي؟ هل بحسم عسكري أم ستكون باتفاق سلمي له تنازلاته الكبيرة؛ كالقبول بمناطق حكم ذاتي للحوثيين كما تبشر به تصريحات مجلس الأمن؟
- هذه الحرب العلنية لن تكون أبدية يا حافظ؛ ستنتهي ما أن تفرغ جيوب مموليها أو يصلون لمبتغاهم أو ينشغلون عنا بمصائبهم الخاصة؛ في الواقع يوجد حرب موازية اشتعلت لأربع سنوات كاملة لكنها تقريبا بلا مقاومة أو تغطية جوية، وتغفل عن خطورتها التحليلات المجهرية التي تقام من أجل استشراف المآل؛ حرب المستقبل الباقية.

إنها حافلات المعلمين التي تتوجّه لأخذ دورات تثقيفية في حوزات التشيع الخفية والوعود السارة بإعداد منهج مبسط من ملازم السيد.

هي غزو المساجد بخطباء السلالة وعملهم الدؤوب في نشر هذا الفكر العنصري.

هي دعاوى تكفير وإهدار دماء من يرفض إدخال آل البيت في المعتقد الديني وإشراكهم بالعبادة والمحبة؛ وحق ولايتهم دونا عن غيرهم.

هذه الأمور والكثير على شاكلتها هي الحرب الفكرية التي لن تحسم بأي اتفاقات.

ما نثق فيه يا صديقي أنه لا يمكن نزع فكرة الأفضلية وحق الولاية من ذهنية الهاشمي كما لا يمكن إلغاء الوجود الهاشمي في اليمن؛ كما لا يمكن إعطاء الحوثية جزءاً من هذا الوطن لينطلق منه وينشر فكره العنصري المختل بكل أريحية وقوة معترف بها دوليا.

الأمر هكذا يصبح أشبه بفترة كمون لسرطان خبيث سينفجر في حرب طائفية بدلا من الحرب الأهلية الحالية.

لكن فكرة تعايش الجميع مع معتقداتهم كائنا ما كانت، في ظل قانون يحكم الجميع على مختلف طوائفهم ومعتقداتهم، ويجرم الهاشمية السياسية كونها فكراً عنصرياً أحدث انقلابا مدمرا داخل البلد، هو الحل الأقرب للحلم صعب التنفيذ بسبب التدخلات الخارجية الحريصة على وجود بؤر للصراعات.

هذا هو الحل الذي توصل إليه الغرب بعد مسيرة حروبهم ضد النازية والعنصرية فنعموا بالسلام.

رد حافظ قائلا:

- للأسف يصاحب هذا غياب قيادات وطنية قوية ومخلصة تقف في وجه الإملاءات الخارجية.

أيده وحيد وهو يعيد كأس الشاي البارد إلى البراد قائلا:

- إن التفاؤل أو التشاؤم لن يأتي بغير الصورة الحقيقية التي في الواقع وهي أن الفكر الحوثي أشد قبحا من الحرب الحاصلة، وأنه يتمدد في عقول البسطاء والعامة والنخب أيضا.

لأنه يلغي الديمقراطية والحرية اللتين تسعى إليهما شعوب العالم.

الحرب الحقيقية هي حرب فكرية من أجل الحرية والمساواة والدولة المدنية واحترام الحقوق، فلا ولاية ولا عنصرية ولا إمامة متخلفة.

(12)

اجتاحه شوق ملح إليها؛ لم يفكر أن يبحث عنها طيلة كل الشهور الماضية منذ آخر رسالة أرسلتها رغم اشتياقه لها؛ في قرارة نفسه كان يأمل أن ترسل كعادتها.

لكنه الليلة يجد نفسه يتفقد صفحتها على الفيس بوك ليجدها مغلقة كما هي؛ يتفقد الواتس فيرى أن آخر ظهور كان منذ شهور ماضية.

حدّث نفسه أنها ربما فقدت رقمها اليمني؛ ولم يعد برنامج الواتس متاحا له؛ وهو لا يعلم رقمها المصري الذي ستستخدمه بطبيعة الحال؛ لم يتحادثا هاتفيا منذ كانت في عدن وآخر رسالة كانت عبر الواتس قبل أن تفقد الرقم كما هو متوقع.

امتلأ خياله بصورتها في آخر لقاء على الشاطئ؛ لقد كانت بين ذراعيه؛ لكنه تركها ورحل؟!

أحيانا لا يصدق أنها كانت قربه روحا وجسدا!!

بعد كل ذلك الانتظار دام اللقاء وقتا كأنه لحظات؛ لماذا لم يخطفها ويهرب من كل هذا الفراق الآتي؛ محاصرا بها والبحر ويبقى إليها ظامئا كل العمر.

يدرك أنه سيراها في المنام لا محالة؛ يبدو أن سميرة كانت على

حق فأحلامه حياة أخرى موازية لحياته هذه؛ لكنه يستمد الحياة من أحلامه ولن تقضي عليه كما تنبأت زوجته.

- أراك دائما في منامي يا عفراء.. التقيك في ذلك العالم الذي لا تأسره قيود أو تقيده منطقية الحدث؛ عالم تفلت فيه الأرواح من عقالها وتلتقي في أماكن مبهمة لكنها تعرف بعضها وتطفئ من أشواقها وحيرتها.

ألتقيك في أماكن لا نعرفها أحيانا؛ لا نصل إليها لكن أرواحنا تصل؛ كنت كعادتك تعبثين بأعصابي؛ نزق طفلة يسكن جسد أنثى ترتدين ثوبا أزرق قصيراً وتميلين نحوي حتى أكاد أمسك بك لكنك ترتدين إلى الخلف ضاحكة كأنك تتعمدين إغاظتي.

أزفر بشوق:

- هل تحبينني؟

فتعبسين كثيرا وتقولين بغضب طفولي:

- أنت تعرف أني أحبك.. لم أخلق إلا كي احبك.

فأقول لك بحسرة:

- لماذا لا تأتين إذاً يا عفراء؟ يجب أن تفعلي شيئا كي نلتقي، لم يعد أمامنا العمر كله كي ننتظر صدف القدر..

لكنك تبكين وأنت ترددين من بين دموعك التي انهمرت فجأة:

- لا استطيع أن أترك أمي هنا؛ لا أستطيع أن أتخلى عنها في آخر عمرها؛ هي بحاجة لي؛ كيف أتخلى عن مسؤوليتي نحوها يا وحيد؟ إنها أمي؛ هل تستطيع أنت أن تترك عائلتك لتأتي خلفي؟ أنا مثلك يحكمني عجز الواقع الذي أعيشه.

تقتربين أكثر؛ تلتصقين بروحي..

- لا تذهب يا وحيد؛ أنا أحتاجك أن تكلمني كل الوقت؛ أحتاجك في كل مكان؛ كما أنت في قلبي وجود لا ينتهي؛ آه كم هو الفرق بين احتياجي إليك كحياة وبين احتياجك لي كمكمل لثغرة في الروح.
- لكني أنتظرك طوال الوقت.
- وأنا أنتظرك كل العمر.. عمر ما أقصر لحظاته الجميلة معك؛ وأشتاقك فما أدري ما أفعل بشوقي إليك؟ وأنا انتظرك أخبرك في خيالي بكل الكلام الذي أتمنى أن أهمس به وأنا أنظر في عينيك؛ أخبرك كم أحبك.. وأنتظر الرد الذي لا يأتي؟

رفعت يديها وأسندتهما إلى صدره؛ عيناها تشع بشوق هيج مشاعره كلها؛ تدنو لتقبله فيشعر بحرارة أنفاسها.

تقبله مرارا وكلما حاول تطويقها بذراعيه أفلتت منه وهي تضحك فيبتسم لضحكتها؛ تهمس:

- وحيد.. سأتذكر هذه الابتسامة التي أرسمها على شفتيك بحماقاتي وأعرف أنها هي الجنة التي وعد الله بها قلبي الصابر على بعدك.

***

كلما أستيقظ وذكرى حلم عالقة في خياله، تنتابه مشاعر الارتواء والظمأ في آن واحد.

نعم يرتوي لمجرد خيالها في المنام؛ ويشعر بظمئها إليه في المقابل؛ يشعر بحاجتها إليه كأنما روحها تأتي لتخبره كم تحتاجه.

آه.. ليت الحياة رؤيا في منام وليت الذي في المنـــام حقيقـــة في الحياة.

بلا شعور يغدق بالحنان على زوجته سميرة؛ قلب الأنثى يجـــدب لو ترك دون سقي بالحنان والحب والعطف؛ وهو لا يريد أن تشـــعر زوجته بهذا الشعور أبدا وهي على ذمته.

ربما عجز عن منح ذات الحب لعفراء لكنه لن يحرم زوجته أبدا.

نهض من فراشه بتكاسل؛ صارت لديه عادة سيئة أن يغـــرق في النوم بمفرده في حجرة مكتبه؛ حتى لو قضى أول الليـــل في فـــراش زوجته ما يلبث أن ينسحب بحجة تركها تســـتريح دون أن يقلقهـــا بسهره على الهاتف أو جهازه ليكتب.

بحث عنها في حجرة النوم مناديا لها فلم يجدها فتوجه إلى المطبخ حيث تقف لساعات كما يبدو له أمام المغسل؛ طوقها بذراعيه مـــن الخلف وأراح ذقنه على كتفها قائلاً:

- تمني شيئا علي يا سميرتي..

فضحكت قائلة:

- أن أعرف سر ابتهاجك هذا الصباح؟

ابتسم وهو يزيح شعرها عن وجهه قائلا:

- كنت مبتهجا أنك تركت عادتك المحببـــة في الاستقصـــاء والاستنتاج حول ما يصدر عني مـــن تصـــرفات؛ لكنـــك أفسدت سعادتي الآن. وطبع قبلة على عنقها.

رغم أنها اختيار أمه وقريبته التي تعرف كل مســـاوئه إلا أنهـــا كانت زوجة صالحة إذا استثنى لسانها أحيانا حين تبـــدأ في إصـــدار أحكامها وفق استنتاجاتها وخيالها.

لقد وقفت معه في أشد اللحظات حلكـــة وضـــمت أولاده في غيابه إلى جناحها حتى لا تنكسر أجنحتهم؛ هي رائعة ما أن يتـــوفر المال والاهتمام وهذا ما يبذل جهده من أجل توفيرهما لها.

وابتسم لنفسه وهو يصب فنجان البن الساخن:

حقا أنا غارق في حب عفراء لكن قلب الرجل يتسع لأربع نساء إن لم يكن جميع النساء الجميلات عند بعض الرجال.

* * *

كحبة القمح.. الانتظار ينبت سنابل مثقلة بالشجن..

(13)

العمل الصحفي ومتابعة أحداث سياسة البلاد يتصحر لهما قلب الكاتب وقلمه.

كنت أرى نفسي في بدايات حياتي أديبا أو شاعرا لكن صحراء الكتابة عن السياسة تلقفتني رغما عني فماتت شاعريتي ظمأ فيها.

حين أنشأت شركة التوزيع طمحت لنشر الأدب بأقل تكلفة تلائم القارئ؛ لم تكن الصحف سوى جانب خفيف كالمقبلات؛ لكن مقالاً واحداً نشرته في صحيفة ضد الانقلاب هدم شركة التوزيع وجعلها في خبر كان.

كل شيء تلاشى بعدها كما تلاشى الوطن والأمن والأمان.

وكان البقاء على قيد الحياة تحدياً وعناداً.

فلو لم يكن في حياتي تحدٍّ كي أنتصر عليه لصنعت من نفسي تحدّياً كي أنتصر على ضعفها.

تمسكت بالبقاء؛ فالأحرار يعشقون الحياة لغرس مبادئهم لكن إذا لزم الأمر يموتون من أجلها.

كبرنا كي لا نحزن كالأطفال من كل ألم؛ كبرنا لكن الحزن كبر أيضا وكبر الألم.

لم يعد ألما يخص القلب صار ألم وطن..

وربما لأنه وجع كبير يرافقه عجز أكبر؛ هذا العجز الذي رافقني حيال أهم الأمور.

حلقة مفرغة.. كلما شعرت بالعجز رغبت بفلسفة هذا الشعور، ربما أجد حلاً أو أقتنع بعجزي.

لست من ذلك النوع الذي يستسلم عندما يقوم بكل ما في وسعه..

يخالجني دائما أن هناك حلاً يرضيني لكنه أشد صعوبة من مقدرتي فأشعر بالعجز من جديد.

الفقد والعجز نالا مني ما لم تنله كل المصادمات في حياتي.

لا يخيفني الموت، هو مقيم بيننا؛ يخيفني ذلك الحزن الذي يعقبه كلما غيب واحداً منا.

يخيفني ذلك الحزن الذي سيملأ مكاني في قلوب أحبتي.

لو أن لنا قريحة في التداوي والاختراع كنا سقينا قلوبنا عقارا ضد هذا الحزن والألم.

في كل بيت يمني يسكن الفقد بديلاً لأحد أفراده.

يصيبنا الهلع ونحن نرى الوطن صوان عزاء كبير لشباب في عمر الزهور كان يمكن أن يكونوا عامل نهضة للبلد وليس صوراً تعلق في الجدران..

من أجل طغمة مستبدة لا تحمل الولاء لليمن يذهب خيرة شباب البلد بين شهيد وجريح.

استهانة مغرقة في التوحش نحو أرواح اليمنيين من كلا الطرفين.

آلاف الشباب في الجيش الوطني كمقاومة في سبيل الجمهورية وعودة الدولة تزهق أرواحهم لأبسط الخيانات والإهمال والنيران الصديقة؛ وشهداء معارك مدينة البقع الحدودية مثال للاستهانة بأرواح اليمنيين.

المطالبات بإنهاء الحرب لم تعد ترفا أو هروبا من الحسم؛ فقد أزهقت هذه الحرب أرواح المقاتلين وأرواح الأهالي على حد سواء.

وإطلاق مسميات التحرير التي تذهب مع الريح بعد أن تدفن مزيدا من الجثث والثكالى والحزانى بلا طائل صارت استهلاكاً فقط لأرواح الشباب اليمنيين.

كان الحسم سهلا لو كانت النوايا صادقة؛ لكن فكرة اجتثاث الجيش الوطني كانت أكثر حضورا من فكرة الحسم العسكري.

من الصعب أيضا أن نتهلل فرحا عندما تكبد قوات الشرعية خسائر في الأرواح من طرف الحوثيين فالغالبية منهم يمنيون ذهبوا للقتال تحت دعاوى التضليل التي تمارس ضد الشباب والقصّر؛ أو الحاجة المالية بعد عملية الإفقار المتعمدة.

بخلاف السلالة الهاشمية الحوثية التي تجيش أبناءها عن قناعة بهذه الحرب التي فرضوها على اليمن.

المئات الذين سقطوا في معارك الساحل من الطرفين هم ضحايا قادة الانقلاب الآمنين في قصورهم الباذخة بعد أن خرجوا من كهوفهم متعطشين للموت والخراب؛ وما مشاهد الموت الجماعي إلا دافع لإسالة المزيد منها كي يبقوا كسلطة حاكمة.

مشهد كتفجير الأسرى في أحد الأحواش يبقى مشـــهداً لا يغفره ضمير البشرية يدلل إلى أي مدى أرواح الناس رخيصـــة في الحروب.

جثث الأطفال دون الخامسة عشرة التي تملأ شوارع المدن المحتلة كشهداء في سبيل جنون السيد تثير الرعب والوجع.

وضع المعتقلين دروعا بشرية أمام قصف الطائرات؛ وضع مخازن الأسلحة وسط المباني السكنية، كل هذا يخبرنا إلى أي مـــدى هـــي الأرواح رخيصة في الحروب.

الحرب ضربت في مقتل فئة عمرية هي قوام مستقبل اليمن؛ فئة فقدت كل طموحات الشباب في حياة كريمة فلا تعليم ولا فـــرص عمل ولا وطن آمن.

حولتهم قسريا إلى الجبهات بين طالب رزق وطالـــب مـــوت وطالب وطن من براثن الانقلاب.

لا فرق بين الحوثية والشرعية في إهمال هذا الشعب وتكثيـــف معاناته واستخدامه شماعة وجود، فلا حاكم بلا محكومين.

ولا يوجد شعب كاليمن ينصاع بصبر ومكابرة رغم معرفته إلى أي مدى وصل به السوء.

فلا دهشة إذا ظهر كائن هزيل من الجوع والمعاناة ليقول بكـــل عناد:

- نحن صامدون حتى آخر معذب متعب على أرض اليمن.

القيادات صامدة أيضا في قصورها، فلا ضير، والشعب صـــامد في معاناته إنما حتى متى؟!

الوضع المعيشي وصل إلى أقسى مراحل التدهور وكل المعطيات

تبشر بالمزيد من هذا الضياع لأننا صامدون فقط!!

وعود تلو الوعود بصرف أنصاف الرواتب وأنصاف الحلول لكنها تذهب أدراج الرياح، بعكس قرارات التعيين التي تتجلى كوضح النهار.

يعامل هذا الشعب كمطية فقط عليها أن تأكل من خشاش الأرض وتسمع وتطيع.

لا أحد يبالي إن مات جوعا أو حربا أو انتهى في التشرد أو المصحات العقلية، فهو لن ينقرض على أية حال، وسيتبقى هناك شعب كي يحكمه المغتصب والشرعي على حد سواء.

ربما الشرعية التي تستمد شرعيتها من قضية اليمن لا تقاتل من أجل عودة أو من أجل حرية لهذا الشعب؛ هم يشعلون الجبهات أحيانا من أجل مكاسب ومصالح فقط وحين يحصلون على بغيتهم لا يحسمون أمر هذه المعارك ولا يبالون بأرواح الضحايا.

مهما كانت الضغوط الإقليمية التي تمارس ضدها من قبل التحالف ستسقط حال إصرار الشرعية على مصلحة الشعب وعودة السيادة والدولة.

يجب أن نعي أن لا أحد يمكنه أن يخرج هذا الشعب مما هو فيه من مأساوية سوى نفسه..

هو تائه وجائع ومحبط وخائف.. ماذا لو ثار ثورة أخيرة، ثورة موت أو حياة؟

ليثور على الجميع فالحلول المؤقتة معاناة إضافية.

كم نحلم نحن التائهين المشردين "بقطز" ما يقودنا إلى الخلاص من تتار هذا العصر.

كم نتمنى أن ينبت بيننا فجأة عمر المختـــار ليقـــول في وجـــه الجميع: نحن لا نستسلم، ننتصر أو نموت.

نحلم كعادتنا ولا يخرج منا قائد، فالقيادة من قلب هذه المعانـــاة هي ما يحتاجه الشعب فقط.

***

(14)

يأتي حين على هذا القلب يحتفظ بعاطفته لنفسه؛ يمكنه أن يحب ويعطي حتى آخر نبضة..

يحب بصمت ولا ينتظر ممن يحب قبولا أو اهتماما؛ يرى كلمة "أحبك" لا تفي بما يشعر أو تصل إلى إدراك من يحب. يسأم التبرير؛ وينهكه الإثبات؛ ولا يبالي بالمقابل.

ستصل إلى مرحلة ترغب بالبقاء فيها وحيدا إلا من روح واحدة فقط لا تؤذي روحك وإن لم تشبهك.

ستكره الضجيج والجدال وتكتفي بصوت واحد يحدثك؛ يكون وجوده إعلانا لراحتك فبين يديه تحط أحمالك من وجع أو فرح.

ستعتزل كل الصداقات التي تكونت في حياتك وتكتفي بأخ لم تلده أمك؛ لا تخشى أمامه ضعفك أو حاجتك.

وستكتشف في النهاية أن هذا الشخص هو نفسك.

كل الأشياء التي تتمنى قولها لشخص واحد فقط؛ كل الأحداث الجميلة أو الحزينة..

كل الكلمات العذبة التي تشتهي أن تقولها لذات الشخص استخدمها تحميلة لحمىّ الثرثرة والبوح واحتفظ بلسانك في فمك مغلقاً.

تخاطب عفراء نفسها في المرآة:

- ابتسمي يا عفراء؛ لا قلق من تلك الخطوط الرفيعة التي تظهر حول فمك حين تبتسمين.

لا تبدو مخيفة كتلك التي تزداد قتامة حين يلوكك الوجع؛ الابتسامة لا تحفر في وجهك تجاعيد.

بل طبقات من الغمام تبزغ على إثرها غمازة على خد واحد كهلال يتوارى خلف الغيوم.

أحبي نفسك مرة كما تحبين وحيد؛ لقد أنهكت قلب أمك قلقا عليك؛ لو رأتك الآن تحدثين نفسك فسيعاودها القلق بشأن صحتك العقلية.

ابتسمي؛ ربما يهطل وحيد فجأة وتنسين كل سنوات وشهور البعد والحرمان؟

آه.. ليت الأشياء تحدث بتلك البساطة التي كانت عليها في طفولتنا؛ كأن ننتظر العيد بلهفة ملحة ثم يأتي..

انتظار الأطفال غالبا ما يحسم بنهاية سهلة إما أن يُنسى أو تأتي أمنية أخرى تستحوذ على ذات اللهفة.

ربما لأن آمالهم بسيطة متصلة بالله مباشرة؛ تعلقت قلوبهم بالرجاء من الله دونا عن البشر.

فقط حين نكبر يصبح كل شيء معقداً في حياتنا.. يتأرجح بين الأمل واليأس.

تعقيدات حياتنا وقراراتنا الحتمية تحول بيننا وبين أحلامنا الصغيرة!!

ينقضي ما تبقى من العمر القصير في الأماني وأحزان الرحيل

لقدر نصنعه بأيدينا ولا محالة منه.

هذه المرة أصرت عفراء أن تخرج بمفردها لتشاهد الغروب على النيل، كانت تحاول أن تشعر بما حولها فقط؛ قمعت رفض والدتها بإصرار؛ لقد سئمت تصرفات والدتها في فرض وصايتها في أدق التفاصيل.

خرجت مغضبة والدموع في عينيها حين ألحت والدتها:

- لكنك مريضة يا عفراء أخشى أن تصابي بسوء أو تصابي بالدوار والإغماء لفرط ما تتناولين من مسكنات ومهدئات وتسقطين في النهر؛ أنت لم تتركي عادتك في الجلوس على حافة الجسر كالمراهقين.
- لست مريضة يا أمي أنا بخير.. بخير فأتركيني أرجوك؛ اتركي عنك هذه الخيالات المضحكة يا أمي؛ أنا لست طفلة كي أسقط في الماء..

وأتبعت عبارتها ضحكة متشنجة من شدة الغيظ.

وهي تتطلع إلى أمواج النيل الهادئة وأشعة الشمس تنعكس على صفحتها تتساءل ماذا لو سقطت في النهر كما تقول أمها هل تغرق؟

هي ابنة البحر وشواطئ عدن الساحرة لم تجرؤ على تعلم السباحة كل عمرها؛ كانت تخاف البحر وتعشقه؛ وكل محاولات والدها لتعليمها السباحة باءت بالفشل.

- أحب أن أراه من بعيد يا أبي.

هكذا كانت تخبر أباها كلما أغراها بالدخول إلى البحر؛ البحر كم يشبه الحب..

ويبدو أن قسمتها من الحب مثل علاقتها بالبحر: تراه من بعيد وإن غرقت فيه حتى العمق.

غرقت على الشاطئ ذات مساء كان كالحلم؛ وهي ترى البحر من بعيد فقط.

آه يا وحيد أنا أللم ذكرياتك المتناثرة بعد هذا الانشطار العظيم وأضمها إلى صدري في عتاب حزين؛ أشعر الآن بالوهن في كل روحي؛ تقول أمي لرفيقاتي أنني مريضة جدا!! وتقول إني أسرف في تناول الأدوية!!

لكنني لا أشعر بالمرض؛ لا أشعر بشيء.. أنا ضائعة فقط..

من منا أضاع الآخر؟ من منا مزق أشرعة العودة فتاه في يمّ الاغتراب والوجع؟

من منا باع أحلامنا من أجل الآخرين؟

لا أعرف عن نفسي إلا أني أحببتك حد الاستماتة؛ أحببت قلبك الحاني وأحببت طبيعتك القاسية؛ أحببتك لي أو لغيري.

تشبثت بك ظامئة للأمان فأزهقت روحي بغيابك وإهمالك الذي لا ينتهي..

من منا أضاع الآخر لست أدري؟!! كنت ملاذي وصرت عذابي الأليم.

لكنني لست نادمة على كل هذا الحب كل هذه السنوات؛ ولو عاد بي العمر لأحببتك أكثر.

حتى أني أعذرك.. نعم أعذر تجاهلك وغيابك وحتى نسيانك.. هذا قدرنا كما تقول دائما.

صرت أشعر أنها النهاية يا وحيد؛

لقد افترقنا من قبل.. والتقينا؛ وتخاصمنا كثيرا وكنا نعود؛ إنمـــا هذه المرة دب في قلبـــي يأس الأمل.

كل شيء له مرة أخيرة..

أحيانا لا تحتاج لإرادتك أنت لتنفذها؛ فإرادة الإنسان مهما عزم ضعيفة.

هناك إرادة علوية تأتي هكذا بلا حســـبان مهمـــا قاومتـــها أو استبعدت إحلالها؛ تأتي هكذا رحمة بك أو حتى ابتلاء.

* * *

ما أشد اتساع قلبك لي يا وطن!! كصحراء بلا نهاية.

(15)

أتساءل أحيانا لماذا لا يثور الناس وقد جاعوا وتخطّفهم القتل؛ لماذا المدن ساكنة هكذا كأنما أعجبها الحال وهي تئن تحت وطأة ظلم الجبايات في كل شيء؛ كل شيء ينتزعون منه حصتهم حتى الهواء يحجزونه عن المعتقلين والمخفيين في سراديبهم.

الثورات على الظلم حق..

ولو كانت نسائم الحرية خانقة كما يدّعي الأغبياء ما ثارت شعوب تبدو لنا مستقرة آمنة. إنما الأمان مراتب أدناها قول الحق وأعلاها ثورة على الظالمين.

المظاهرات الاحتجاجية المطالبة بالحقوق لا تشرق إلا من تعز، هذه حقيقة رغم وضعها الذي لا تُحسد عليه.

هذه الروح الثورية الوثابة تلائم طبيعة المدينة المالحة.

في إب وكل المناطق التي تحت سلطة الحوثي الأمر مختلف؛ إنها أشبه بمدن ميتة تضج بالزومبي الذين يعيشون الموت بسلام.

مدينة إب نسبة الجريمة فيها تنافس الأسعار ارتفاعا؛ لكنها مع ذلك مدينة السلام والسياحة.

أصبح غالب الظن أن بينها وانتفاضة الثورة سنوات ضوئية غارقة في الظلام.

لكن مئات من شبابها الثائر ينسلون كالمشاعل المتقدة؛ يبحثون عن وهج الحرية حيث كان.

هناك ثورة مكبوتة تشتعل تحت رماد الخوف ولن يزيح الرماد إلا رياح الجوع التي عصفت بأحيائها الفقيرة.

وجوه الناس المتغضّنة بحسرة وحزن، خطواتهم المتعثرة؛ أصواتهم التي قاربت الصراخ لأتفه الاسباب؛ وأيديهم التي تمزق الأضعف بسادية كتفريغ لضغط مكبوت.

إنها رائحة الحنق والقهر المنتشرة في أجواء المدن اليمنية عوضا عن روائح قدور الطعام في بيوت تجار الحروب.

دعاء ثكلى تتعثر بإيتامها ولعنات الشباب فوق الحافلات؛ كل هذا يقول إن ثورة تختمر في الصدور وتكاد تنفجر.

لكنها لشدة القمع لن تنفجر كثورة تغيير؛ بل كمزيد من السلوكيات العدوانية وفوضى جريمة أكثر؛ مظالم بعضها فوق بعض وظلمات لا تنتهي.

ثورة 11 فبراير كانت نتائجها محبطة؛ لذا صار الخوف يحكم التفكير بثورة أخرى لا أحد يدري إين تمضي بهذا البلد الذي زادت انقساماته أكثر.

حدثني صديقي أنه في إحدى الجولات وقف رجل نحيل؛ ممسكا بإطار نافذة الباص يستجدي السائق أن يقله مجانا هامسا بصوت متحشرج كيلا يسمعه من في الباص:

- أشعر بالإغماء لشدة الجوع؛ هل يمكنك أخذي في طريقك ليس لديّ أجرة ركوب.

لكن السائق رفع صوته كي يسمعه كل الزبائن حتى المفترض

مرورهم على الرصيف قائلا:

- حتى أنا أشعر بالإغماء من سعر الوقود؛ كيف أحمل النـــاس دون أجرة وهل سيعطونني وقوداً دون ثمن.

ابتعد الرجل عن نافذة الحافلة وقد علته صفرة الجـــوع وكآبـــة المهانة.

لم يتحرك فدائي واحد داخل الباص لإقالة عثرة الرجـــل؛ إنمـــا تعثرت نظراتهم في فراغات أحدثتها اللحظة.

ذات الموقف الأليم يحدث حين اصطدمت دراجة نارية بأحـــد الأطقم الحوثية.

كان الخطأ جليا في استهتار الطقم وسرعته الجنونية؛ لكن أفراده أشبعوا الشاب صاحب الدراجة ضربا ببنادقهم وأرجلهم في شـــارع رئيسي.

لم يتحرك أيضا أي فدائي حتى بالصوت فقط.

الفتيات والشباب الذين خرجوا أواخر 2018 في ثورة الجيـــاع وتم قمعهم وضربوا واختطفوا من جامعة صنعاء كانوا بحاجة لمساندة صنعاء كلها؛ كانوا بحاجة لخروج كبير وليس مجموعة قليلة من الفتية تحمل عصيّا صغيرة يوقد بها الخوف أكثر في نفوس الناس من المليشيا المسلحة بالوحشية؛ لقد كانوا الجياع الذين شبعوا ضربا.

للأسف ملامح الرحمة والتعاطف اختفت؛ الخوف على الآخـــر والوجود الجمعي والحق المسلوب كلها اختفت.. نتحول إلى غابـــة دون أن نشعر.

الثورة لا تأتي بالكلام والأطروحات المنمقة الـــتي ينظّـــر لهـــا أشخاص في بروج مشيدة؛ أولئك الذين يطلقون كلمات تحريضية أو

ساخرة من وضع الناس ومخاوفهم ثم يذهبون للتنزه في الحدائق.

بل تأتي الثورة من قلب الخطر والخوف لهذا تسمى ثورة؛ لا بد فيها من مجازفة وتضحية جماعية يصعب إخمادها.

لا بد من تكاتف ومساندة؛ لا بد من ضمير جمعي يوحد التوجه والمطالبات ويحافظ على أخلاقيات الثورة.

لكنه الخوف أن نطعن في الظهر ككل مرة حتى وإن كانت صدورنا عارية.

***

(16)

- أنوي الرحيل يا وحيد..

باغته حافظ بهذه العبارة فانقبض لها قلبه؛ الرحيل؟!! تبا لها من كلمة.

التفت إليه بهدوء:

- لماذا أتى هذا القرار فجأة؛ ألست تقول إن مشروع زواجك يسير بشكل حسن؟ كما أن لديك عملاً هنا لا يتأتى لغيرك؟ ماذا حدث لك يا صديقي؟

رفع يده يخلل بها شعره وهو يهرب بعينيه عن نظرات وحيد؛ لكن هذه الحركة كانت كافية ليفهم ما يعانيه صديقه من اضطراب رغم قوله:

- من الشجاعة أن نكون صادقين مع أنفسنا فلقد أنهكت هذه الحرب أرواحنا..

وأنا أريد أن أكون صادقاً مع نفسي فلا أتغنى بحب وطن يذبحني مآله من الوريد إلى الوريد.

يجب أن أعترف أن أولئك الذين يحبونه عن بعد كانوا على صواب وأن الحظ حالفهم في النجاة من حالة الموات التي نحياها كل يوم.

سأهاجر؛ ولنقرّ أننا شعب مهاجر بالنية وإن كانت أجسادنا حبيسة الحدود أما أرواحنا فطارت في أرجاء الأرض تحلم بالانعتاق من هذا الحال المزري.

نحن شعب مهاجر بالوراثة غلبتنا القوارض للأسف، أطاحت بسدود وطنيتنا مع أول قضمة. نؤمن أن الوطن هو تلك الأرض التي تحترم إنسانيتنا وكرامتنا وأمننا؛ وقد قيل "حيث تكون الحرية يكون الوطن".

وهذا ما نفتقده في اليمن ونفتقد معه كل مقومات الحياة والسلام.

كإنسان أريد وطنا آمنا حتى على سطح المريخ؛ وعندها سأرى ترابه الأحمر مسكاً وعنبر وسأسجد سجدة شكر ما أن أصل إليه.

ابتسم وحيد لحديث صديقه المعقول لكنه قال مداعبا:

- تريد أن تذهب إلى المريخ بسبب خلافات عاطفية مع حبيبة عانت كثيرا في حياتها؟

لماذا نفذ صبرك الذي زعمت يا صديقي؟

أحمر وجه حافظ خجلاً أو غضبا لدعابة وحيد التي أفسدت جدية اللحظة التي اجتهد من أجلها ورضخ متعبا منهكا:

- لا فائدة لصبري يا صديقي مهما كان جبالاً؛ إنها لن تحبني أبدا ولا تحتاج لي؛ أليس الحب احتياجاً؟ هي لا تحتاج إلى وجودي؛ للأسف أكثر من يتعرضون لصدمات الألم هم أشخاص لا يعرفون متى يتوقفون عن تقديم التنازلات. نحن حين نبذل الحب نقطع نصف المسافة. ستلتقي القلوب إذا

بادلك الطرف الآخر بقطع النصف الثاني؛ لكنها لا تحاول ولا تريد حتى المحاولة.

جذبه وحيد من كتفه وهزّه برقة:

- ليس دائما يكون احتياجاً؛ أحيانا يكون اختياراً بمحض الإرادة. فكرة الهجرة تبدو لي مناسبة؛ سنجربها كي نساعدها على الاختيار.
- لم أفهم يا وحيد؟!!
- ستفهم غدا؛ ما كنت أريد قوله لك أني أيضا فكرت مرتين في الهجرة، ليس هروبا من الحب لوطني أو من امرأة ترفضني؛ في الهجرة الأولى إلى هنا كنت أنشد وطناً، وفي حلم الهجرة الآخر من أجل امرأة أحبها وجبنت كثيرا أن اختارها.

أتذكرُ حين سافرت إلى عدن قبيل استشهاد شائف؟ كنت يومها ذاهبا لاختطافها عروسا لي على شاطئ البحر؛ لم أخبر أحدا حينها حتى شائف – فلا تفغر فاك هكذا – كنت حريصا أن يكون الأمر سريا مراعاة لمشاعر سميرة؛ لكن القدر كان قد اختار قبلنا وافترقنا.

- وأين هي الآن؟
- سافرت مع والدتها المريضة إلى مصر بعد أن يئست من عجزي عن التقدم خطوة؛ منذ شهور طويلة لم أسمع عنها شيئاً أو ترسل لي حرفا؛ لا أظن أن هناك أشقى من شعور العجز؛ عن فعل شيء.. عن قول شيء.. عن رفض شيء.
- حسنا وأنت هل أرسلت؟

- لا.. لا أعرف لها طريقا و لم أبحث؛ أحلم فقط بالسفر إليها؛ ويتشبث بـــي كل شيء هنا.

كنت قد خذلتها من قبل حين هاجرت إلى مـــأرب؛ حينـــها كنت مثلك أريد وطناً لا أستيقظ فيه على أخبار القتل والخطـــف والقصف؛ ولا أنام فيه على رعب النهار وقلق الغد الذي يحتل ليلي كوابيس.

أريد وطنا لا تملؤني الحسرة كلما رأيت جماله البهي وأنا أدرك أن كل خير فيه قسمة بين أعدائه وخونته ولا حظ لي منه ســـوى القبر.

أريد وطنا لا تنسخ فيه المليشيا بعضها كالمحلل والمحلل له؛ أريـــد وطنا يكون لأبنائي الأب والأم إذا غيبني عن الحياة الموت.

أريد وطنا لا أمطره بالدموع كلما استحال صحراء قاحلة بـــلا زاد أو مأوى..

نريد وطنا كلما أردنا أن نزرع بين جنباته الـــوعي لم يبادلنـــا مرجفوه بالحقد والعداوة.

فمهما توالت الحكومات أو تغيرت وهي تحمل ذات العقـــول الفاسدة فلن يتغير حالنا؛ التغيير يبدأ في الإنسان أولا. نريد وطناً نحبه ولا نشعر أن البقاء فيه أقسى من الموت قتلاً.

لكنني لم أجد ذلك الوطن الذي أحلم به ولا استطعت الحصول على الحب الذي أريده.

أطرق حافظ وقد أوجعته نبرة الحزن في كلمات وحيد؛ شـــعر بأن هناك حبا أكبر وجعا من حبه لسماح؛ إنه حب الوطن بلا أمـــل في حياة كريمة فيه.

كل يوم يقطع المحرمون عروقنا المتصلة بتراب الوطن؛ جـــذورنا التي تربطنا به؛ صرنا نراه كابوسا ونتمنى الهروب منـــه إلى أقصـــى الأرض حيث لا حزن ولا دم..

نتركه للضباع لأننا لا نملك منه وفيه شيئا إلا حق العاشق المحروم في التمسك بالوهم أن تحدث معجزة ويعود لنا هذا الوطن..

غلبت عليه النجاسة واستولى عليه الأنجاس فماذا تفيده أرواحنـــا الطاهرة التي يدفنها في جوفه فداء له يوما إثر يوم ولا يرتـــوي مـــن تضحياتنا.

هدنا حبك يا يمن بلا أمل في نجاتك أو نجاتنا..

قتلتنا الأماني يا وطني وسحقتنا الحرب؛ وصارت أمنيتنا أن تعود سعيدا ضربا من المستحيل.

***

- أخبرني حافظ اليوم أنه يفكر بالهجرة..

ربما أصابه صدك باليأس يا سماح؛ أشعر أحيانا أني والدك الـــذي ينبغي عليه أن يهتم لك ويعينك إذا انتابتك الحيرة.

تعرفين؟ قد يستميت العقل كي يجد يقينا يؤمن به؛ يظل ينقض الحقائق كلما توغل في فلسفة ما حوله؛ تتفتح أبواب العقل للمعرفة بلا نهاية بعكس القلب الذي يستميت كي يجد حبا يكتفي به؛ يغلق أبوابه كطفل ما أن تصدمه أولى حقائق الحياة من حوله؛ هـــذا مـــا يحدث لك يا سماح، أغلقت أبواب قلبك بإحكام و لم تتركـــي لـــه فرصة كي يجرب الحب مرة أخرى؛ أسألي قلبك هل يريد أن يبقى حافظ معه؟

أسأليه قبل أن يلومك أنك أضعت هذا الحب الصادق عليه.

اتسعت عينا سماح بدهشة..

- هل يمكنه فعل ذلك حقا؟ تمنى وحيد أن تكون نظرة عينيها خوفا من رحيله؛ لكنها قالت بثبات:
- سبق وتركني عمار وذهب.

فقد وحيد أعصابه وصرخ فيها:

- ما بالك تصرين على اجترار الماضي بمناسبة وغير مناسبة؟!! عمار ذهب للقيام بواجبه و لم يتركك؛ يجب أن تتخلّصي من ماضيك كي تبدأي حياة جديدة؛ فكري يا سماح قبل أن تندمي لضياع حافظ.

أنا ذاهب الآن لتوديعه؛ سيسافر غداً إلى الرياض؛ ومنها لا أدري إلى أين؟ ما زال الوقت كافيا لتفكري بهدوء.

تركها على ثقة أن غدا سيكون هناك شأن آخر.

خبرته في ردود أفعال النساء أشعرته أن انتظار حافظ لن يطول؛ لطالما تنبأ بردود أفعال عفراء وكانت تقوم بما يظنها ستفعله.

لم تخذله سوى مرة حين أرسلت رسالتها الأخيرة وأقفلت كل الأبواب إليها و لم تعد.

انتظر كثيرا رسالة أو مهاتفة أو حتى خبرا عنها؛ لكنها كانت يائسة أو موجوعة أكثر مما تخيل.

لعلها في المقابل كانت تنتظر الخطوة الأخيرة منه هو؛ أما أن يسافر إليها ويرتبطا، أو يتجاهلها ويصبح ما كان بينهما حقا.. خيطا من دخان.

كان حافظ قد سبقه إلى المكتب؛ وكانت ملامح وجهه تقـــول الكثير؛ مطّ شفتيه برضا وهو يهتف: يا للنساء!! ظننتها ستفكر حتى الغد؛ يبدو أنها قد أرسلت لك ما أفرحك.

- ماذا قلت لها لتغير رأيها هكذا وتريد أن نحدد يوما للزفاف؟
- قلت لها إنك ستهاجر وأتيت الآن لتوديعك؛ لكن عوضـــا عن ذلك سنرتب لحفل الزفاف فسماح تستحق أن نفرحها بزفاف جميل.

أتدري يا صديقي؟ الحب الأول تقع فيه على وجهك فعلا..

لا تختار أن تقع أو مكان غرقك ولا عمق الوقعة التي تأسرك..

إنما الحب الثاني فتختار الحفرة التي تسير إليها بقدميك؛ تختارهـــا وفق مقاييس أحلامك وخيالك، تنتقي حجم شغفك ووجعـــك في ذات الوقت؛ الحب الأول يختاره قدرك والحب الثاني يختـــاره قلبـــك وسماح اختارتك.

***

(17)

لم يعاود ماهر الحديث عن الذهاب إلى جبهة القتال منذ عـــودة أبيه إلى مأرب.

لكن نظراته التي يستوقفها موازية لعيني أبيه في عناد تقول أكثـــر مما يمكن أن يقوله.

على مائدة الطعام أو في جلوسهم مساء ما أن يتحدث وحيـــد حول الحرب حتى يطيل ماهر النظر إلى أبيه عن قصد كأنما يقول لـــه بتلك النظرات الغاضبة: أنت تقول ما لا تفعل يا أبـــي.

أدرك وحيد أن زوجته سميرة هي من لجمت رغبة ولده الجامحـــة في خوض قتال حقيقي لا يشبه ألعاب الفيديو التي أدمنها وهو صغير.

وهذا من محاسن سميرة الكثيرة فلولاها لخاض صراعا مع ولده لا يعرف نهايته.

إنه سلطان قلب الأم الذي يلين له الصخر؛ أما علاقة الديكـــة التي تربط الآباء مع أبنائهم فتستهلك حِلمه وصبره وتنتهي بما لا يريد.

مرات كثيرة حاول أن يتحدث بشكل عارض غير مقصود عن كفاح الكاتب والقلم الذي يحمله كسلاح موازٍ للبندقية والرصاصة؛ حاول أن يشعر أولاده أنه ينزف حبره من روحه وعروقه أيضا؛ لكن خبرة ماهر في هذه الحياة لا تتجاوز بطولات قصص النضال المســـلح

الحماسية التي تدغدغ قلوب الشباب في أوضح صور التضحية والبطولة.

تعود أن يتغاضى عن نظرات ولده الغاضبة أحيانا والساخرة أحيانا كثيرة؛ عن عباراته الهازئة في تلميح إلى تناقض أبيه أو تخاذله؛ حين يلقيها في البيت في براءة ماكرة؛ يبتلع ألمه بصمت وهو يحدث نفسه:

- ستكبر يا ولدي وتفهم هذه الحياة؛ وستعذر أباك وتتمنى أنك لم ترسل رصاصات عينيك وكلماتك إليه.

في لحظة ضعف حكى حاله مع ولده لحافظ؛ فحافظ يصغر وحيد بما يزيد عن العشر سنوات؛ يقع في منتصف المسافة العمرية بين وحيد وولده؛ حدثه عن استخفاف ولده بما يقول ويكتب بعد أن رفض ذهابه إلى القتال وتمنى عليه مرافقته ومحاولة كيف يفكر فقط؟

ربما يستطيع أن يصل به إلى قناعة لم يستطع وحيد أن يصل إليها معه.

ابتسم حافظ مواسيا وهو يقول:

- أنت أكبر من هذا الشعور يا وحيد؛ الولد ما زال مراهقا ولن يصل إلى قناعات واعية في سن كهذه؟ نحن نساعده على التفكير لكن من الصعوبة توجيه هذا الجيل المتأزم نفسيا فعلا.

أتدري يا وحيد؟ أنت بحاجة إلى سفر بعيد يجدد روحك ويواسي جراحك الكثيرة؛ متى ستسافر القاهرة لرؤية عفراء؟

غامت عينا وحيد بحنين عاصف وهو يقول:

- بعد زواجك أنت وسماح سيكون ذلك؛ أحتاج أن أجـــد نفسي فعلا.

***

أسعىٰ إلىٰ الحب والسلام..

كعيسىٰ بن مريم؛

إلا أني صلبتُ وهو نجا..

(18)

وهي تقوم بدورها لتفقد المرضى في المشفى علمت زينب من أحاديثهم بعودة دفعة الجرحى التي فيها شوقي التعزي إلى مطار سيئون؛ لأسابيع طويلة منذ سافر لاستكمال العلاج وهي تخوض صراعا وحيرة فاقت كل مراحل الحيرة في حياتها..

كم خاض هذا القلب من ألم وأمل؛ من خوف وتردد؛ من حيرة وضياع؟!!

منذ اعتقال زوجها الشهيد لم يسكن قلبها بين ضلوعها أبدا؛ لم تعد تعرف راحة الأنثى بوجود السند الذي ترمي على كتفيه أحمالها وهي مطمئنة أنه ظهرها وراعيها.

لأسابيع طويلة والحيرة تنهش قلبها: ماذا لو عاد شوقي خاطبا لها هي الأرملة أم الطفلين هل تقبل به هو العازب الذي فقد ذراعه وربما ساقه؟

لكنها تذكرت أنه أخبرها إذا عاد دون ساقه فلن تراه مجددا؛ سيسلك طريق عدن قافلا إلى مدينته تعز؛ هكذا أخبرها وصارت تدرك تلك الأنفة والكبرياء اللتين تميّزانه.

لن يقبل أن يعود بتلك الصورة المؤلمة..

إنما لو عاد يا زينب؟ وتقدم لك خاطباً؟ هل تقبلين به؟ وزوجك أبو ولديك حبيب قلبك الذي عانيت من أجل انتظاره كثيرا؛ هل تخلفين وعدك في انتظاره حتى تلقيه ولو في حياة أخرى؟

هل تحتاجين حقاً لوجود رجل في حياتك؟ من أجلك أم من أجل طفليك؟

يا لهذه الحيرة والخوف من القرار الأخير والندم!!!

كامرأة هي ما زالت صغيرة تطاردها العيون والكلمات؛ لكن هنا في مأرب ما أكثر الأرامل الصغيرات!! وكم تحزن لمصيرهن وقدرهن من الحرمان والعجز مع أطفالهن، وأحيانا يُقتل الزوج في الشهور الأولى للزواج.

تشفق على الأمهات الأرامل اللاتي عجزن عن العمل لعدم التعليم أو عدم وجود إمكانات لأعمال ملائمة لقدراتهن.

أمام عينيها رفضت إحدى الجهات التي تقدم سلالا غذائية تسليم سلة غذائية لزوجة أحد الشهداء بحجة أن اسمه سقط من الكشف.

يومها خرجت الأرملة دامعة العينين وهي تقول: لقد سقطت حقوقنا في الحياة يوم سقط شهيدا.

وزوجة شهيد آخر قدمت مع طفليها وأخيها إلى مأرب، بحثا عن راتب زوجها، لتجد أن أخوة الشهيد يتسلمون الراتب دون أن يتذكروا طفليه بأي مبلغ مالي، بل هددوا أخاها بالحبس إن طالب به، وعادت إلى مدينتها بطفليها وعجزها وحاجتها.

أرملة أخرى لجأت إلى العمل سراً في البيوت؛ خوفا من العيب

بعد أن ذاقت الجوع هي وأطفالها، وتناساها المجتمع المثقل بالمعانـــاة، تقول بقناعة:

- لن يرى الناس الوضع المادي الذي أعيشه، لكنهم سيفتحون عيونهم جيدا حين أتنقل بين بيوت الأغنياء كي أقوم بخدمة عوائلهم.

إنها المرأة الجانب المسكوت عنه من ضحايا الحرب، وجع مـــن تلك الأوجاع التي نمر عليها مرورا سريعا بلا استفاضة حديث؛ ليس لأنه أقل أوجاع الحرب صدمة؛ بل لأنه يخص المرأة في مجتمع قبلـــي محافظ، لا أحد فيه يحب أن تذكر المرأة إلا بإشارة مبهمة وبتلميح لا يعري خصوصيتها أبدا.

نالت منها الحرب من كل جانب، وهي الأم وهي الزوجة وهي الضحية المباشرة لمجتمع يرى المرأة عورة.

هذه العورة تترك في مواجهة شظف الحياة بلا ستر من رجـــل ينفق عليها وعلى أطفالها أو دخل أو عمل يقيها الحاجة، وقد تكـــون في مقتبل العمر وفي أول درجات الشقاء في حياتها.

إنها الحرب التي تكاثرت أوجاعها في مجتمعنا فصارت لا تُعد ولا تُحصى.

هناك من يجد فكرة الأرامل صغيرات السن من زوجات الشهداء أخف الأوجاع صدمة.

في مأرب فقط عشرات من هؤلاء الفتيات اســـتمر زواجهـــن لشهور أو سنوات كانت كفيلة بطفل أو طفلين، لتبدأ حياتها وحيدة.

وعلى امتداد اليمن آلاف الأرامل الصغيرات الـــلاتي تـــزوجن مشروع قتيل.

كثيرات من هؤلاء النساء؛ إما أن يرتبطن بكبار السن أو يبقين عالة على أهاليهن أو يقضين حياتهن أرامل يعانين فقرا ووحدة وعجزاً.

قد يحدث أن تتخلى الفتاة عن طفل أو طفلين بطلب من أسرتها الذين يرفضون أو يعجزون عن كفالة أطفال الشهيد؛ تتركهم للضياع دون أب أو أم.

الكثيرات بلا مصدر رزق أو إعانة في مجتمع تأكل الحرب الأخضر واليابس فيه، ويصبح الغلاء قاتلاً آخر ينتهك البيوت، وتعجز فيه الدولة عن القيام بواجبها لأهالي الشهداء.

هؤلاء هن الجانب الضعيف الذي تضاءلت السبل المتاحة له في الحياة، فجل اعتماد المرأة كان على معيل يسندها في معيشتها.

هؤلاء هن من تعاونت التقاليد والمجتمع الذكوري والحرب أخيرا على تحويل حياتهن إلى جحيم دائم بانتظار الموت.

لكل هذا تخاف من مصيرها وحيدة هنا؛ تنهشها الحيرة بين القبول بزوج يساندها أم تخوض غمار الحياة كمعركة وحيدة.

هذه الحيرة التي تعصف بحياتها جعلتها تتمنى بكل شعورها بالذنب ألا يعود شوقي كي لا يضعها في هذا الخيار؛ فعدم عودته لا تعني إلا أنه فقد ساقه.

كم تخاف أن تأتي هذه اللحظة إلا أنها أتت الآن كصعقة جعلتها تنتفض في وقفتها وشوقي التعزي يظهر من باب الطارود الممتلئ بأسرة الجرحى ليشير إليها بيده الوحيدة أن تأتي إليه ليحدثها.

تجمدت أطرافها من رهبة الموقف وشكرت الله كثيرا أن هـــذا النقاب الذي عايشته كمصير محتوم يحجب ملامح وجهها التي غافلتها بسعادة رغما عنها.

***

(19)

كان يوم شاق قررت فيه الخروج من المنزل ظهرا لأول مرة منذ وصولها القاهرة؛ اشعرتها معرفتها أنها لم ترَ شروق الشمس منذ شهور بالصدمة!!

كان وصولها مع والدتها إلى القاهرة في نهاية النهار والشمس الغاربة تبدو من نافذة الطائرة كموج أحمر موشّى بخيوط الذهب.

ما أن غادرتا صالة الانتظار حتى تلقفهما ليل القاهرة بأضوائه الساطعة وزحام الحياة فيه.

كان إيذانا أن تكون كائنا ليليا سيحرم من شروق الشمس الذي يبعث التفاؤل والأمل في القلوب.

خرجت أولا بصحبة والدتها إلى أقرب بقالة تبضعت منها والدتها ما تحتاجه للبيت؛ كانت فرحتها غامرة وهي ترى عفراء تستيقظ مبكرة صباحا؛ منتعشة بصورة افتقدتها منذ جاءت إلى القاهرة.

لم ترفض الخروج لشراء الحاجيات و لم تتعلل بالصداع أو رغبتها بالكتابة؛ استيقظت مبتسمة تغني بصوت عال على غير عادتها مؤخرا.

سألتها والدتها صباحا وهي تخفي سعادتها كي لا ينقلب مزاج ابنتها:

- تبدين مختلفة هذا الصباح يا حبيبتي؛ أخبري أمك هل ارتاح قلبك حول أمر ما؟

ابتسمت عفراء برضا قائلة:

- نعم يا أمي ارتحت فعلا، فقد أرسلت ديـــواني الأخـــير إلى المطبعة وأشعر أني أنجزت فعلا.

واستدركت بحرج وهي تلقي نظرها أرضا:

- أمي.. كنت أود أن أهدي لك أنت وأبـــي هذا العمـــل الأخير لكنني أهديته لشخص آخر. ابتسمت أمهـــا بحنـــو قائلة:

- هل هو صاحب الابتسامة الجميلة في هاتفك؟

ارتفع حاجبا عفراء بدهشة:

- يبدو أنك تشعرين بـــي أكثر مني يا أمي. وأضافت بغمغمة حزينة:

- إنه وحيد الأمير، كاتب صحفي يقيم في مأرب؛ كان أجمل ما حدث في حياتي..

احتضنتها والدتها بشفقة وحنو قائلة:

- حبيبتي لا تقولي كان؛ ولا تقولي عملك الأخير؛ ستكتبين أجمل قصائد اللقاء به كما كتبت أجمل قصائد الفـــراق عنه.

ورفعت صوتها وهي تقول بحماسة:

- يجب أن نحتفل إذاً؛ سنخرج إلى التبضع وسنصنع معا مـــا تحبين من طعام وحلوى وادعي صديقاتك التي تحبين لهـــذه المناسبة العظيمة.

ابتسمت عفراء قائلة:

- ماذا لو دعوتك أنت يا أمي إلى الغداء في الخارج عقب التبضع للبيت؛ هذا إنجاز يستحق يوم راحة من الطبخ لنا أو لغيرنا.

امتد يوما شاقا لعفراء التي اعتادت الجلوس في البيت فرارا من زحام وحرارة القاهرة؛ أخذت والدتها إلى الغداء في مطعم مطل على النيل؛ ثم اصطحبتها مساء إلى دار السينما؛ كانت سعيدة بما أنجزت و لم يكن هناك أحد يمكن أن يشاركها سعادتها سوى والدتها.

حين عادتا ليلاً كانت والدتها سعيدة كما لم تكن من قبل؛ سعيدة أنها استعادت طفلتها الكبيرة كما كانت.

تبادلتا حديثا قصيرا ثم أوت أمها إلى فراشها وهي تدعو لها بسعادة أبديه لا ترى بعدها حزنا أبدا.

أما عفراء فقد رتبت مكتبتها الصغيرة مفسحة مكانا لديوانها الجديد الذي سيأتي قريبا.

على الرف سبقته رواية وثلاثة دواوين صغيرة الحجم؛ الرواية التي كانت سببا للقائها بوحيد ذات صباح في مكتبه في صنعاء.

زارته يومها للاتفاق بشأن قيام شركة التوزيع خاصته بتوزيع روايتها تلك التي لم تكتب سواها، بل عايشت قصة حب معه أقرب إلى الرواية منها إلى الحقيقة.

تمددت على فراشها منهكة تسترجع ذكريات أول لقاء بينهما قبل خمس سنوات؛ تلك الدهشة والشغف الذي اعتراهما معا..

غرامها به الذي جعلها تغازله بجرأة فاقت شـــجاعته؛ قبلتـــهما الأولى والأخيرة؛ عقب دعوته لها إلى الغداء.. ريفيته الساحرة ونظراته التي أسرتها.. ابتسامته الفاتنة التي لا يشبهها شيء.

يومها أرادت أن تعلق في ذاكرتها رائحته؛ أن تتشرب ابتســـامته المرتعشة عن قرب وأنفاسه تصطدم بوجهها وتملأ صدرها.

غادرتها السكينة والنوم مع سيل الذكريات الـــذي انســـكب كشلال هادر من الحنين، كم حاولت لشهور طويلة حجبـــه عـــن مخيلتها.

- على سرير من الجمر – هذا التوصيف لن يفقد مصـــداقيته مهما صار مبتذلاً؛ هي تتقلب على جمر في سهر ودرجـــة حرارة خانقة رغم المكيف؛ أشعلته الذكريات والحنين.

ويبدو أن كل الحبوب المهدئة والمنومة أنقلب مفعولها إلى العكس تماما؛ ليت أمها التي تخشى أغماءها فجأة إذا خرجت بمفردها تعلم ما تعاني من أرق وسهر وقلق مبهم مع تناول الحبوب المنومة.

هل اعتاد جسدها وخلايا مخها تأثير تلك الحبوب أم عليهـــا أن تضاعف الكمية فقط؟

أعطاها الطبيب أدوية قليلة وأخبرها أنها مجرد أدويـــة مســـاعدة لإفراز هرمون السيروتونين الذي يخفف من القلق والاكتئاب؛ لكـــن ماذا عن أدويتها الخاصة بالصداع والنوم؟!!

ضاعفت كمية المنوم في محاولة لجلب النعاس ونهضـــت مـــن فراشها لأخذ دوش بارد كمحاولة أخيرة لطـــرد الأرق؛ تـــذكرت حالة النعاس التي كانت تغشاها حين كانت تأخذ حماما لطرد الجو الحار في عدن؛ كانت تستلقي بشعرها المبلول وتغيب في نوم عميق

بعد أن يتسلل الخدر إلى جسدها المنتعش؛ أينها من تلـــك الأيـــام الهانئة؟!!

ملأت الحوض بالماء البارد ونزعت ثيابها وغطست في ارتجافـــه منعشة؛ كأنها تطفئ كل الجمر الذي علق بها من ســـهرها وأرقهـــا؛ انزلقت في الماء وأغمضت عينيها تراود النعاس أن يـــأتي؛ وتصـــرف ذكرياتها بعيدا.

ستقفز إلى سريرها وتنام قبل أن يعرف بعودتها كـــل الســـهر والحنين الذي ينتظرها.

ليس الموجع في الحياة تلقي الصدمات بقسوة.

الموجع أن لا تجد ركنا تنزوي فيه وحيدا تبكي وجعك بصمت وحرية.. وكبرياء.

(20)

تحدد موعد واحد لزفاف سماح وزينب على حـــافظ وشـــوقي التعزي.

أصرت سماح أن يكون زفافها مع صديقتها المقربة؛ بعد أن جمع شوقي ما يكفي من معونات الاصدقاء لشراء "كونتيرة" ستكون بيت الزوجية.

هذه البيوت المتنقلة التي انتشرت في مأرب من أجل النـــازحين؛ كانت مناسبة مع تلك المساحات من الأرض الصحراوية التي منحت لهم كأماكن للسكن.

كان وحيد مشغولا بصديقيه كأم العروس وأبيها بعد أن منحـــه أخوة سماح توكيلا كي يعقد قرانها بسبب سفرهم البعيد في الســـويد والمانيا.

لحسن الحظ أن حماسة الأصدقاء تجعل كـــل الأمـــور ســـهلة التكاليف؛ تيسر أمر الزفاف بشكل أدهش الجميع؛ الحصول على شقة وتأثيثها وتوفير كل متطلبات الزفاف جعل حـــافظ يقـــول لوحيـــد ممازحا:

- هكذا هو تحالف الأصدقاء والأخوة فعلا ولـــيس تحـــالف السياسات.

تبسم وحيد قائلاً:

- هؤلاء الأصدقاء هم الذين يتناقصون استشهادا أيضا بسبب تلك السياسات.

صرت على ثقة أنه لو اقتصر الحسم علينا كيمنيين لاختلف الأمر؛ لكنها لعبة كبرى لاعبوها كبار بلا ضمير إنساني؛ اليمن أحد ضحايا الأطماع لتشكيل المنطقة واستغلال مواردها أو بشكل أصح سرقتها..

إنها الحرب الباردة للتحالفات الكبيرة؛ وكل المغازلات المسلحة في الخليج التي تحدث الآن من تفجير ناقلات وطائرات مسيرة؛ أو حتى مثيلتها في حرب التكنولوجيا والاقتصاد ما هي إلا حرب زائفة لإخضاع الآخر سلميا.. فالضحايا الذين يسقطون فيها هم هامش نقاشات الدول الكبرى.

ضحك حافظ وهو يشيح بيديه رافضا:

- ما رأيك أن ننسى اليوم كل الحديث عن الحرب والخراب الذي حولنا؛ اليوم عرس وغدا أمر آخر.
- حسنا يا صديقي سنخبر العالم القلق من نشوب حرب في منطقة الخليج أن تموز لعام 2019 خاص بزواج صديقي حافظ وصديقتي سماح ولا ينبغي أن يتحدثوا عن حربا باردة يخشى أن تزداد سخونة توقعها مع الأيام.

لا خشية من فكرة تقسيم اليمن التي تنهش أكبادنا ما دام الزواج فكرة لجمعك أنت وسماح بعد يأس طويل.

ضم مجلس العرس كلا العريسين؛ حافظ وشوقي التعزي وعشرات المهنئين من رفاقهما وتعالت أغاني الزفاف اليمنية بأصوات رخيمة.

هذا هو الشعب الذي ينتزع مسراته من فم الحرب والحزن.

ووحيد يهم بدخول "المجلس" تصل رسالة إلى هاتفه لا يـــدري كيف التقطت أذناه نغمتها.

يطالعها وهو يضع أوراق القات في فمه؛ لكنه ما يلبث أن يردها بشهقة انتزعت جوفه كله.

وقد تلوت الأرض تحت قدميه مثلما هي في أحشائه.

* * *

لا تمدّ يداً ضعيفة للسلام ستكسر حتىٰ عند المصافحة.

(21)

استيقظت والدة عفراء متأخرة للصلاة وهي تغمغم بالدعاء لولديها؛ لقد نامت باستغراق و لم تدرك صلاتها أو موعد يقظتها.

توجهت إلى حجرة عفراء لتيقظها لكنها وجدتها خالية؛ طرقت باب الحمام لتنبيهها قبل أن تعود إلى حجرتها لتصلي.

لم تخرج عفراء فعاودت الطرق ومناداتها؛ انقلبت أحشائها قلقا وعفراء لا ترد.

أعادت الطرق والنداء بعصبية وهلع.. لا صوت بالداخل رغم أن الباب مقفل بالمفتاح.

لطالما كرهت عادة ابنتها في إغلاق الحمام حتى لو كانت وحيدة في البيت.

لم تدري ما تفعل وقد خارت قواها تماما وبدأت بالنشيج رغما عنها؛ خرجت لتطرق شقة جيرانهم المصريين من خلال صوتها الباكي فهمت جارتها وقدمت مع زوجها الضخم الذي حاول فتح الباب بالحيلة ولجأ لكسره آخر المطاف.

أمسك بمقبض الباب قائلا:

- تراجعي أرجوك يا أم عفراء ستدخل زوجتي.

لم يكن بحاجة لقول ذلك فساقاها عجزتا عن التحرك؛ مـــا أن دخلت جارتهم حتى صاحت بشهقة:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

وهوت أم عفراء أرضا..

كانت عفراء تستلقي في حوض الاستحمام غارقـــة في المـــوت وشعرها يطفو حول وجهها الهادئ بسكينة وراحة.

***

(22)

ولدي العزيز وحيد..

لقد عانيت كثيرا منذ وصولي إلى عدن قبل شـــهر في الســـؤال عنك والبحث عن رقمك..

لا أدري ما السبب في فراقك عن ابنتي عفراء وهل مـــا زلـــت تحمل لها شعورا ما..

ما أعرفه أنه لزام علي أن أخبرك بشأنها؛ لأنك كما قالـــت لي أجمل حدث في حياتها لذا لزام علي أن أبلغك أن عفراء أبنتي توفيـــت غرقا وهي نائمة كالملاك؛ ربما كانت تفكر بك حينها فقد كنت آخر حديثها لي قبل نومنا معا تلك الليلة..

لمحت صورتك مرارا في هاتفها قبل أن تحدثني عنـــك وتخـــبرني باسمك وعملك..

لقد أهدتك ديوانها الأخير وماتت وهي تتمنى أن تأتي القـــاهرة وتلتقيا؛ انتظرتك حتى آخر لحظة قبل أن يسرقها الموت وهي نائمة..

سأرسل الكتاب في أقرب وقت إليك في مأرب؛ أثق أن عفـــراء لم يكن يهمها أن يقرأه أحد مثلك.

إذا فكرت في زيارة عدن سأصحبك لزيارة قبرها إن كنتُ مـــا أزال على قيد الحياة.

والدة عفراء.

***

في تلك اللحظة ووحيد يهم بالدخول إلى مجلس الزفاف طالعته رسالة والدة عفراء.

انفجرت الدماء في أذنيه وعينيه؛ بل انفجرت أحشاؤه وقلبه لوقع الكلمات..

عفراء.. ماتت.

عاد متراجعا إلى أقرب حمام صادفه وأغلقه عليه وقتا مستقطعا من وعيه لا يدري كم هو؛ لم يكن واعيا لشيء إلا أن لا يرى أحدا.

خرج بعد فترة طويلة وطلب من أول صديق قابله أن يعتذر لحافظ فقد وصله خبر مهم وسيغيب لساعات؛ ما زال مفتاح السيارة التي زفّ بها حافظ معه؛ استقلها مبتعدا خارج مأرب.

الصحراء فقط يمكنها ابتلاع صرخاته ودموعه وصدمته.

وكأن ليل الصحراء الهامد جزء صغير من حزنه الكبير؛ ارتمى على الرمال الساخنة يبكي كالأطفال؛ يبكي ويصيح ويلعن نفسه التي خذلتها.

عندما نشعر بالحزن نرتمي أرضا..

ينهكنا الوقوف أو السير أو حتى الجلوس؛ نرتمي أرضا فحسب..

للحزن ثقل يهدّ صمودنا فنتهاوى كأعواد يابسة يوم حصاد ونمتزج بالأرض مجددا. لقد بكى كل سعادته وحياته التي دُفنت في أرض الوطن.

عفراء الحبيبة ماتت، احتواها التراب وليس أحضانه هو..

ظل يبكي طوال الليل مستلقيا على الرمال وعنـــد بـــزوغ أول توهج للضوء قاد السيارة إلى سد مأرب؛ سيقفز بنفسه في السد الذي يغرق فيه الناس بكثرة؛ سيجرب كيف هو شعور الغرق المريح بـــدلا من غرقه في هذا الحزن المضني.

وصل السد ودون أن يخلع حتى حذاءه سبح حتى أبعـــد نقطـــة يستطيعها.

سبح مطولا ينتظر الغرق؛ حاول أن يغرق لكنه يطفو كقشة لا قيمة لها.

فجأة انتشلته ذراعا رجل وسحبتاه خارجا؛ أدرك أنـــه أحـــد الغواصين الذين يراقبان السد لإنقاذ من تسول له نفسه الســـباحة في مياه السد الخطرة.

انسحب إلى السيارة وهو يلعن الغواص الذي أتى حين لم يحتجه أحد في حين أنه يغيب حين يحتاجه من يغرق فعلا.

جلس في السيارة حتى انتصفت الشمس في كبد السماء زائـــغ النظرات قد نضبت دموعه وصار حزنه أخرس حتى من الأنين..

غادر السيارة وجلس على الرمال حتى الغروب..

كانت الشمس المتوهجة بحرارة لاهبة تغوص في ميـــاه الســـد؛ فتبدو أجمل مما توصف؛ غروب ملكي لأشعة ذهبية ساحرة، كم يشبه الغروب الموت أثناء النوم!!

حينها فقط قاد السيارة عائدا إلى بيته.

***

(23)

استقبلته زوجته وأولاده عند الباب ما أن سمعوا حركة المفتاح فيه؛ كان القلق يلتهم وجوههم في ترقب وتوجس مذ سمعوا بمغادرته العرس ليلة أمس؛ بادرته سميرة:

- أين كنت يا وحيد؟

رد بصوت واهن:

- لا بأس؛ كنت خارج مأرب، أحدهم قُتل وذهبت لوداعه.

كان مظهره المرهق والمحطم كاف عن قول أي شيء آخر لكن ماهر استغل الموقف كعادته قائلا:

- هؤلاء هم الرجال الحقيقيون، صدقوا ما عاهدوا الله عليه..

التفت وحيد إلى ولده في شرود وهو يقول بخضوع:

- نعم هؤلاء رجال حقيقيون يفون بعهدهم؛ أنا فقط ذلك الوغد الحقير الذي لا يفي بوعدٍ ويقول ما لا يفعل..

امتقع وجه ماهر لكمية الحزن في صوت أبيه؛ قبل أن ينزوي جانبا وقد صعقه منظر أبيه وصوته وكلماته تلك؛ يبدو كمن بعث من قبر وليس عائداً من دفن أحدهم.

لأول مرة يشعر بالندم لوقاحته المقصودة؛ لكنه يعجز عن الاعتذار لأبيه الذي جر قدميه المتّسختين إلى حجرة مكتبه وتمدد على الأرض كالقتيل.

فتح وحيد هاتفه؛ لم يكن قد أكمل الرسالة بالأمس؛ ما قرأه كان كافيا لقتله؛ فلم يحتمل ما تبقى.

كانت هناك صورة لعفراء بغطاء شعرها الأزرق تبتسم بحزن وشرود وقد غافلتها كاميرا المصور؛ وتقرير الطبيب الشرعي الذي ذكر أنها ماتت غرقا بعد أن غلبها النوم في حوض الاستحمام لتناولها كمية أكثر من المعتاد من أقراص المنوم وصورة أخيرة لقبرها مكللا بالزهور..

- أهذا كل ما تبقى منك يا عفراء كومة تراب كشاهد على جمالك ودفئك وحبك الكبير؟!!!

تبا لهذه الحياة التي توجد فيها دون إرادتك؛ ويحدث فيها ما لا تريد.. وتفقد من تحب؛ وتشتهي ما لا تملك..

وتموت انتظارا لشيء سعيد؛ ومع ذلك هناك من يرفض وجود الآخرة.. إذا متى سنعيش؟

يا الله ما أهون هذه الحياة وما أقلها.

ماتت عفراء!!

كيف نزعتها مني أيها الظلام وطويتها في قبر؟!!

لم أكن لأصدق أن يأتي هذا اليوم الذي تخلو منك الحياة.. بل خلت الحياة بفقدك..

لقد نزعتِ الحياة من أحشائي وروحي برحيلك المباغت يا عفراء..

وداعا يا عفرائي؛ وداعا يا ضوء الشمس الذي كان يدفئني ويضيء طريقي وانسج من خلاله غلالة أحلامي..
وداعا يا حبيبة الروح ورفيقة شجني وأشواقي.

***

كعادته كلما قصفته الحياة بفقد يزلزل كيانه يعتزل الحياة والناس ورغبة العيش كلها.

أغلق هاتفه تماما؛ وشكر الله أن حافظاً مشغول بعروسه ولن يزعجه أو يبحث عنه.

كان ممتنا لزوجته سميرة انصرافها عنه ومراعاتها لحالته التي ألفتها من قبل فهي تنتابه مع رحيل كل صديق.

أيام طويلة ينفصل فيها عما يدور خارج حجرته؛ ربما يقرأ كثيرا أو يكتب أكثر؛ يكتب شاعرا أن ماضيه يحتاج أن ينتهي ككتاب وصل إلى صفحته الأخيرة.

ربما يبكي دون دموع كل أحزانه السابقة ثم يتركها بين صفحات أوراقه ويخرج منها كصفحة بيضاء محتها الدموع.

يحتاج أن يتصالح مع فجائعه المتوالية؛ يريد أن يتقبل كل هذا الحاصل فقط.

في صباح من تلك الصباحات المعتمة دخل أصغر أطفاله ممسكا بظرف أصفر متوسط الحجم قائلا له:

- هناك رجل أتى به وقد سألني وأنا ألعب مع رفاقي أمام البيت عن منزل الصحفي وحيد الأمير، وأنا أخبرته أنك أبي فناولني هذا الظرف.

قبّل صغيره قبل أن ينطلق الصغير خارجا لمعاودة اللعب.

تحسّس الظرف الأصفر بقلق يكاد يجزم أنه ديوان عفراء كما قالت والدتها؛ كان اسمه مكتوبا فقط بخط واضح؛ غرس أصابعه في شعره المبعثر وهو يحدث نفسه:

- هل تملك القدرة على قراءة سطر منه يا وحيد؟ هل يمكنك أن تقرأ كلماتها الناطقة بالألم والخذلان دون أن يتحطم داخلك الذي تحاول ترميمه طيلة هذه الأيام؟

لكن أصابعه امتدت تلامس كلماتها برجفة لوعة صامتة؛ يتذكر ملمس كتفيها حين شدها إليه ذلك اليوم على الشاطئ؛ ولا يصدق أنها حقا قد تلاشت.

عندما فتح وحيد أولى صفحات ديوانها قرأ هذه العبارة:

"عندما خلقنا الله لم يسألنا ماذا نريد؟..

طفق يرتب الكون كله بإرادته ونحن جزء يسير من هذا الكون..

لو أن الله سألني ماذا أريد من كل هذا الكون؟

كنت سأقول له: أنت فقط".

كانت هذه الكلمات كافية كي يغلق الكتاب لا يدري إلى متى؟ لكنه عاجز عن قراءته!!

إنه ذات العجز الذي يصفعه دائما في قراراته الخاصة.

ذات العجز الذي أفقده عفراء وكل شيء خسره وسيخسره طيلة حياته.

***

أخيرا هو بحاجة إلى تحدي نفسه فقط..

سيكسر عجزه الأزلي؛ هو على قناعة أن الكلام – كل الكلام – لم يعد يجدي شيئا.

خرج من عزلته أشد صلابة؛ لقد مات ضعفه وتلاشى الأمل الخادع من حياته ومستقبله.

إنه بحاجة إلى الرحيل في إجازة طويلة؛ ليس إلى القاهرة كما كان يخطط فعفراء قد ماتت؛ بل إلى مواجهة الموت شخصيا.

الموت الذي قابله من قبل؛ قابله أكثر من مرة؛ في الصحراء في ذلك الحادث وفي شقته بتسمم غذائي وعاطفي؛ سيذهب أيضا لمقابلته هناك حيث يختبر صدق كلامه من عدمه كما يقترح ولده ماهر.

لن يخشى على أحبته أن يحتل الحزن قلوبهم من بعده؛ فهو كما يبدو لم يمت بعد عفراء ولا ينوي أن يموت حزنا.

سيموت وفيا لكلماته وفيا لوعده المتبقي في سبيل الوطن؛ لم يعد في حياته عشق يعادل عشق الوطن فمعشوقته ماتت.

"عفراء المشمسة كشواطئ عدن ماتت؛ ماتت في الغربة والحنين ماتت لأني خيبت أملها كثيرا.

سامحيني يا عفرائي، لقد مات الكثيرون هنا أيضا.. ماتوا حرباً وليس حباً..

ماتوا جوعاً وفقرًا وقتلاً".

(24)

كان لخروج وحيد من عزلته فعل العيد في عائلته؛ كان قد ذهب إلى الحلاق ورتب مظهره فبدا مختلفا بعد أسابيع من الفوضى العارمة.

أخبر سميرة عن نيته؛ وكعادتها فاجأته برصانتها وتقبلها لقراره؛ كان ماهر من عارض بشدة.

غادره لونه وارتجفت شفتاه وهو يخاطب والده بحزن:

- أرجوك يا أبي؛ أنا سأذهب إلى القتال؛ ابقَ أنت من أجل أمي وأخوتي.

نشج بصوت مكتوم وهو يشعر بالذنب؛ هو السبب في قرار أبيه.

احتضنه وحيد برفق وهو يهمس في أذنه:

- لن أقاتل.. على الأقل حتى أتعلم كيف يقاتلون.. وابتسم رافعا حاجبيه بدهشة.

هو لم يحمل سلاحا في حياته.. لم يقتل أحدا أو شيئا باستثناء أحلام عفراء البريئة..

لكنه سيقاتل تلك الأحلام الشيطانية التي تزرعها المليشيا ضد وطنه وأبناء شعبه.

سيقاتل، فهو الخيار الأخير المتاح لهذا الشعب كي ينال حريتـــه وكرامته.

- لم يعد يجدي قتال الكلمات؛ فأصواتنا تضيع بجوار كل هذا الزيف والدجل في الإعلام.

أردف وهو يطلق ماهر من عقال احتضانه:

- أنت المستقبل، أنت وأخوتك.. هذا الذي لن أفرط فيه أبدا.

***

يوم رحيله إلى المعسكر لينضم إلى كتيبة المقاتلين الذين سيرحلون إلى مواقع الاشتباك كان الرضا يملأ نفسه.

خطر في باله وهو يودع رفاقه كلهم؛ يودع حافظ وسمـــاح.. يودع زوجته وأولاده.

ما أجمل أن تودع أحباءك وهم على قيد الحياة على أمل اللقاء.

أخيرا ودع أحباء لقلبه وهم أحياء..

تمت بحمد الله